محسن الأمين

ديوان الشاعر

عبد المطَّلب الأمين

أشعاره
سيرته
ما قيل عنه



...عة وتدقيق
... الخيّر



إصدار
جمعية إحياء تراث
العلامة السيد محسن الأمين
بيروت

المحتويات




مدونة جبل عامل
JABAL AMEL BLOG



الإهـــداء

إلى ذكرى والدي عبد المطلب

الذي آمن منذ فجر شبابه بالشعب وحده صانع الثورات الحقيقية..

فألزم نفسه طواعية على حب الحقيقة.. والحكمة..

وعشق الجمال.. وحب الإنسان.. والحرية.. فكان له ما أراد.

محسن الأمين

الشاعر في سطور

ولد عبد المطلب الأمين في دمشق سنة ١٩١٦م، وتوفي في بيروت سنة ١٩٧٤م، ودفن في بلدة شقراء من جبل عامل (لبنان).

أتم دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية في دمشق وحمل شهادة «الليسانس» في الحقوق.

عُيّن مدرساً في دار المعلمين الريفية في بغداد. وفي هذه الدار أتمّ أيضاً الشاعر السوري الكبير سليمان العيسى كطالب، تحصيله العلمي.

عُيّن مستشاراً في وزارة الخارجية السورية في أول إنشائها ثم رئيساً للبعثة الدبلوماسية في السفارة السورية في موسكو، وتابع عمله في بغداد كرئيس للبعثة الدبلوماسية، ثم نقل إلى الإدارة المركزية في دمشق.

تمرّد على انقلاب حسني الزعيم فأقاله من وزارة الخارجية السورية.

انتقل إلى لبنان فعُيّن بعد حين قاضياً في المحاكم المدنية اللبنانية واستمر لبضع سنوات.

انتقل إلى دولة الكويت حيث عمل محامياً في محاكمها.

انصرف في أواخر حياته إلى الكتابة والشعر، وعمل مترجماً في وكالة نوفوستي.

كان يجيد اللغات: الفرنسية، والإنكليزية، والروسية.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بقلم: المحامي محسن عبد المطلب الأمين

لا أعتقد، بأي حال من الأحوال، أن شيئاً، ما، كان بقادر أن يدخل الغبطة والبهجة إلى قلب والدي الشاعر والدبلوماسي والمحامي والقاضي والمترجم والمفكر عبد المطلب محسن الأمين، أو يرسم ابتسامة مشرقة غامضة ذات مغزى على وجهه الوسيم، أكثر من أن يعرف أن واحداً من أولاده الثلاثة، سوف يعمل وينجح بعد مرور أربعة عقود على رحيله (١٩١٦-١٩٧٤)، بإعادة نشر وجمع تراثه الشعري المبعثر هنا وهناك.. وفي مدن عديدة: عربية وإسلامية وأوروبية.. وفي صدور الحفظة من الرجال الذين عاصروه،[1] أو جايلوه، أو الذين ورثوا عن آبائهم وأجدادهم من السلف الصالح واللاهي، دون أن يسعوا إلى ذلك، بعض القصائد والمقطوعات الشعرية والأبيات اليتيمة المؤثّرة، والحكايات الضاحكة والنوادر الطريفة

(١) من هؤلاء نذكر: الدكتور عبد السلام العجيلي، نزار قباني، حنا مينه، نجاة قصاب حسن، محمد الحريري، سعيد الجزائري، أحمد الصافي النجفي، عمر أبو ريشة، عبد الغني العطري، وفؤاد الشايب. (هاني)

عنه، التي احتفظوا بها بعناية بين أوراقهم الشخصية، كذكرى عطرة شائقة تحمل نشوة الشعر العظيم وروعته وعطوره، ورسالته الحضارية للأجيال القادمة. ولا سيما أن هؤلاء كانوا يعرفون ويعون ويلمسون، أن الشاعر عبد المطلب الأمين، وللأسف الشديد، لم يكن يكترث بحفظ شعره أو جمعه في مصنّف خاص، بغية نشره في ديوان مستقل كعادة الشعراء عندما تسنح له الظروف، لذلك فإن الكثير من قصائده السياسية والوجدانية والغزلية والخمرية، أضحت في ذمة التاريخ أو محجوبة مرحلياً عن الأنظار، وبعضها نُسب غفلة إلى غيره من الشعراء الكبار.[1] ولعلّ السنوات القادمة تتيح لنا الحصول على المزيد من قصائده المجهولة، فنضيف ثروة ذات أهمية أدبية خاصة إلى ديوان الشعر العربي المعاصر.

وفي هذا المقام.. نذكر بأن الصحافي السوري الكبير هاني الخيِّر، استطاع العثور على مقطوعتين شعريتين في أرشيف ورحاب المكتبة الظاهرية بدمشق، بمساعدة مدير المكتبة الظاهرية يومذاك المحقق ماجد الذهبي، نظمهما عبد المطلب الأمين وهو في حوالى الخامسة عشرة من عمره، وتمّ نشرهما في جريدة (الناقد) الدمشقية الأسبوعية المحتجبة في العام ١٩٣١، عندما كان طالباً في «مدرسة التجهيز الأولى» بدمشق، المعروفة اليوم باسم «ثانوية جودة الهاشمي»، فكان هذا الاكتشاف الهام، برأيي الشخصي، من (بواكير) مسيرته الشعرية المظفرة فيما بعد...

(١) مثالنا على ذلك قصيدة (غنت فيروز مغردة وآذان الشعب لها تسمع. أجراس العودة فلتقرع. عفواً فيروز ومعذرة أجراس العودة لن تقرع.. الخ..) التي تنسب إلى الشاعر نزار قباني، والأمثلة عديدة على هذه الظاهرة. (هاني)

وهنا أودّ الإشارة.. بكل أمانة الكلمة الواعية إلى أنني لم أكتف بتوثيق شعره الذي سبق أن نشره، مشكوراً، شقيقه الأكبر العلاّمة المؤرخ الموسوعي حسن الأمين، في كتاب مستقل محدود الصفحات، بل ألحقت بالكتاب الذي بين أيديكم، شهادات وآراء ودراسات نقدية تناولته، وذكريات وحكايات منسية جرت معه وكان هو بطلها الأوحد، وفي الوقت ذاته أضفنا إلى تراثه الشعري ما وصلني من محبيه الأوفياء من مقطوعات شعرية غير معروفة أو متداولة على نطاق ضيق. فضلاً عن فصل خاص استغرق إعداده وتحريره وتوثيقه ثلاث سنوات وهو بعنوان: (عبد المطلب الأمين في المؤلفات العربية الحديثة)، وقد جاء هذا الفصل الدسم المتميز في شموليته وغنى معلوماته، تعمياً للفائدة المرجوّة من نشر كتابنا، وتسهيلاً لعمل النقّاد والباحثين والمؤرّخين، وخدمة لمحبي الاطلاع على سير وتراجم الأعلام العرب، سواء أكانت هذه الترجمات بأقلامهم أم بأقلام الآخرين المنصفين.

جاء نشر هذا الكتاب، كاستجابة عفوية للطلبات المتكررة من محبي شعره الكثر، وعارفي عراقته الأسرية وفضله ومكانته المرموقة في عوالم: الشعر والأدب والسياسة والقضاء والترجمة، فكانت الرسائل الشفهية والورقية، والاتصالات الهاتفية وغير ذلك.. تصلني بصورة دائمة من متذوقي شعره الصافي، من أجل نشر شعره الذي وصل إلينا، بالرغم من أنه ليس شاعراً عاش في أجواء العصر العباسي الأول أو في بلاط الخليفة، حتى يضيع الكثير من شعره، في كتاب جديد وفي حلّة طباعية جيدة وحسنة التبويب. فكان هذا الإلحاح الشديد الذي أمدّني بالعزيمة الصادقة.. وهذه اللهفة العارمة.. وأشياء أخرى.. من الأسباب الرئيسة التي دفعتني إلى إصدار هذا الكتاب،

الذي أضعه بكل ثقة وفخر واعتزاز بين أيدي الأخوة القرّاء الأفاضل، لعلّهم يجدون بين دفتيه ما يروق لهم من أشعار نابضة بالسموّ الوجداني، وبالحيرة الفلسفية الأزلية عن الوجود، وبالأشواق الحارة التي تواكب الحياة وتعانقها إلى حد التماهي معها.

ويتضمّن هذا الكتاب، أيضاً، فصولاً متوالية تتناول بتفاصيل جزئية وبخطوط عامة، مراحل حياة الشاعر عبد المطلب الأمين وكل ما يمتّ بصلة إليه، من انتصارات وانكسارات، وأحزان ونكبات، وطموحات مستقبلية تتعلق بالإنسان العربي الجديد وبالشعب، الذي خرج من كهوف ومستنقعات الشرق القديم إلى الشرق الجديد، على حد تعبير الشاعر المنتحر الدكتور خليل حاوي، مما وقع بيدي أو بيد الصحافي المخضرم الأديب هاني الخيّر، فضلاً عن دراسات أدبية معمّقة وإضاءات نقدية قيّمة، كما أسلفنا سابقاً، تناولت بمنهجية علمية وأمينة، أسلوبه وسمات شعره وقاموسه اللغوي الذي هو نسيج وحده، وهي بأقلام كوكبة من كبار الأدباء والنقّاد والشعراء والصحفيين والمفكرين. كما عثرنا والكتاب قيد الإنجاز على قصيدة نبيلة المعاني في رثاء عبد المطلب الأمين، وهي من نظم الشاعر السوري الكبير الراحل محمد الحريري، وقد نشرت أول مرة، في ديوان الحريري الصادر العام ١٩٨٥م، عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، إعداد وتقديم الأديب شوقي بغدادي، وأثبتناها في القسم الخاص بالمراثي التي قيلت عنه في مناسبات مختلفة...

وهو في شعره، بصورة عامة، كان بعيداً عن المحسّنات اللفظية وزخارف القول الإنشائي الذي يُراد منه التلاعب اللفظي واستعراض العضلات

اللغوية المتوزّمة، فهو لم يكن متكلفاً بقنص المجازات والتشبيهات المعقدة، على طريقة شاعر العرب الكبير محمد مهدي الجواهري، المهم عنده صدق التدفق الشعري.. وصدق اللحظة الشعرية.. وتداعياتها المتوترة النازفة اللاشعورية، والتعبير الدقيق عما يدور في خافقه موطن الأسرار والجرأة دون إفراط، المفعم، حتى الثمالة، بحبّ بلاد الشام وحضارتها الزاهية وأهلها الأوفياء، والتعبّد الصوفي في محرابها الخالد، منبع الشرف والمروءات، الذي يفوح منه رائحة عطر الياسمين الدمشقي.. والورود الدمشقية النضرة المروية بماء المكرمات..

ويعكس شعره مشاعره النبيلة الدافئة الحانية، وتطلعاته الوطنية والقومية والتحررية المشروعة التي تنحاز إلى الشعب دون مواربة، من أجل إيقاظ الضمائر الحرة والنفوس الأبية، وإطلاق الطاقات الإبداعية والنفسية الخلاّقة، الكامنة في نفوس أبناء الأمة العربية، لا على المستوى الفردي العابر السريع الزوال والتلاشي، بل على المستوى الجماهيري الأكثر استجابة لتحقيق المتغيّرات المأمولة، والأكثر تلبية لنداء الواجب الوطني والمثل النبيلة الأصيلة والقيم العليا، من أجل إسقاط الطغاة والحكّام المأجورين، وصولاً إلى غد تسطع فيه شمس الحرية... وشمس العرب...

فكان في شعره الذي نظمه وهو يمتطي ظهر العاصفة المزمجرة، علاقة تناظرية متناغمة بين الألفاظ والمعاني والمباني، من خلال رشاقة لغوية مشحونة انسياباً، بطاقة روحية مكثّفة ومتوهّجة لا تخفى على القارئ الكريم، ما يدفعه بسلاسة إلى تذوّق وتلمّس المتعة الأدبية والذهنية، التي هي من مقوّمات نجاح القصيدة وذيوعها بين المتلقين، حيث تتناقلها الشفاه

الظامئة للجمال للآذان العطشى بيسر، وبكل ما يدخل إلى شغاف القلب وخلجات النفس السريّة وضفاف المشاعر دون «فيزا» أو جواز سفر.

كانت مهمة جمع وتنسيق وغربلة ما تضمّنه هذا الكتاب من فصول صعبة بالنسبة إليّ، ولكنها محبّبة وأثيرة إلى قلبي، فأنا كنت في حوالى الثانية عشرة من عمري، حين انتقل والدي من عالمنا الأرضي إلى جوار ربه الكريم، وهو لم يبلغ العقد السادس من عمره، ما حرمني من حضور مجالسه الأدبية العامرة وندواته الثقافية، أو الإصغاء إلى أفكاره السياسية وهواجسه الشخصية ونوازعه النفسية، ومن ثم مناقشته مناقشة هادئة واعية ومستفيضة، في ما يقول من شعر أو نثر، أو ما يطلقه من آراء فلسفية حياتية، أم تراثية، أم اجتماعية.

وللأسف العميق.. فقد اكتشفت أهمية ما خلّفه عبد المطلب الأمين ومكانته الريادية في ديوان الشعر العربي المعاصر، وفي عالم السياسة السورية والعربية المتشابك، وفي دنيا الدبلوماسية الهادئة، بعد رحيله المؤلم عن أسرته بسنوات طويلة، من خلال ثلة من رفاق دربه، ومن الكتب الأدبية والنقدية، ومن المذكرات الشخصية لأعلام معروفين، ومن مؤلفات تراجم ومصنّفات الرجال والمشاهير، التي تحدثت عنه بصفحات، أو بكتاب خاص،[1] أو بمقتطفات سريعة، أو بشذرات قد لا تفي بالغرض المطلوب، ولكنها مجتمعة ترسم الوجه الحقيقي دون «رتوش» أو زيف، لوجه عبد المطلب الأمين الحقيقي، وتلقي الضوء الساطع على شخصيته المتميزة ونفسيته الثائرة

(١) انظر كتاب عبد المطلب الأمين الشاعر المتمرد لمؤلفه محمد موسى حمادة، الصادر عن هيئة إنماء المنطقة الحدودية في لبنان، ٢٠١٤م. (هاني)

المتمردة، في وجه المنحرفين والمنافقين والمرتشين، من سماسرة وانتهازيين وفاسدين، ومن يريد إذلال الشعب بانتزاع رغيف الخبز منه.

وبإيجاز.. كانت حياة والدي عبد المطلب الأمين، سلسلة متواصلة من العطاءات النضالية والنجاحات الدبلوماسية المواكبة لمسيرته الشعرية، من أجل مجد سوريا وشموخها، ارتقاءً بها إلى مدارج العلياء ومنابع الضياء، وقمم الكرامة الوطنية التي تلامس عنان السحاب، بعد إنجازها الاستقلال التام في السابع عشر من نيسان العام ١٩٤٦م، والتخلص من المستعمر الفرنسي البغيض على سوريا ولبنان تحت تسمية (الإنتداب).

دون أن ننسى عذاباته الشخصية وآلامه المعتقة الدفينة، وهمومه الوطنية والذاتية التي تنهش صدره، وشعوره بالغربة والظلم والإحباط، بعدما أقاله من وظيفته في وزارة الخارجية السورية، المشير حسني الزعيم، صاحب أول انقلاب عسكري في تاريخ سوريا المعاصر وفي الشرق الأوسط معاً، دون وجه حق أو مسوّغ قانوني، سوى لسبب إطلاقه علانية كلمة حق.. وصيحة جريئة مدوّية.. في وجه هذا المغامر العسكري، الذي تسلّط كسلطان جائر، من دون شرعية دستورية، على الحياة العامة في سوريا، من خلال قصيدة شهيرة له أخذت مكانها في هذا الكتاب.

ولعلّ هذا الكتاب الممتع، كما أعتقد، بفصوله وصفحاته مجتمعة، يعيد سيرته التي أوشكت أن تصبح منسية بين الناس، وفي الوقت نفسه تسعد القارئ بنفحات وقبسات صادقة من شعره وأشجانه، وتغريداته خارج

السرب الشعري الدبلوماسي السوري[1]، بعدما بدّدنا الصمت وأزلنا غبار النسيان والإهمال، ضمن إمكاناتنا المتاحة، عن شخصيته وشعره الذي يموج بالوجع الإنساني السرمدي، وبالقلق الوجودي العاصف، في صحراء هذه الحياة العربية القاحلة في هذه الأيام، وبالتفاؤل بالغد العربي المنشود، وكذلك التبشير بانتصار التقدم والعلم والخير على أعداء الحياة والحق والجهال والظلاميين في كل مكان من العالم.



المحامي محسن عبد المطلب الأمين

لبنان- شقراء

١٥ تشرين الثاني ٢٠١٤م

(١) المقصود هنا بالسرب الشعري: الشعراء الثلاثة الذين عملوا في ملاك وزارة الخارجية السورية كسفراء أو دبلوماسيين وهم: عمر أبو ريشة، وخليل مردم، ونزار قباني، دون أن ننسى أن الأمين كان أحد ناشطي ومؤسسي وزارة الخارجية السورية. (هاني)

المقدمة

نهاية .. وبداية !

بقلم: د. حسين مروة

كم انتهى، ليبدأ ! .

وكم ابتدأ ، لينتهي، دون أن ينتهي !.

وحين قيل لنا: (انتهى)، كانت تلك آخر مرة ينتهي فيها، ليبدأ دون نهاية..

كان هاجس النهاية عنده يستبق هاجس البداية، إذا كانت هذه شكل بداية، مضمونها الفراغ، يرصدها قَدَرٌ أعمى، وتحكمها التفاهة.. أي إذا كانت (شيئاً) دون طعم، أو كان لها طعم الاستكانة والخنوع والرضا المطلق الأبله..

من هنا انعكست عنده القضية.. أصبحت القضية عنده: أن لا نكون، أو أن نكون.. أي أصبحت هكذا: إما (لا زمن)، صهوته العدم السرمدي.. وإما وجود نملك منه أفضل أبعاد الوجود: عمقه، وعرضه. أما البعد الزمني فليس يهمُّ: طال أم قصر..

(... فقد يهون،

أن لا نكون، إما نكون (نكنُ) بلا حواس ولا عيون، وبلا عزاء ولا ثغاء ولا عواء ولا شجون، وبلا غناء ولا نحيب ولا اكتئاب ولا حنين، وبلا عطور ولا شفاه ولا وفاء ولا كمين- نصطاده، يصطادنا.. عاش الكمين !..)

تلك هي قضية، عبد المطلب !.

هو يرفض حياتنا وجوداً يسكنه (العدم)، يسكنه السكون، تتكدّس حشوه التفاهات.. يرفضها هناء نبتلعه (كحبة أسبرين.. لتسكن الأوجاع، أوجاع التفاهة والسكون..).

ما يريده، هو وجودنا (الآدمي) مأهولاً (بآدمية) الوجود.. يريد الكائن - الإنسان - (آدمياً) بالفعل، يمارس باختياره كل زخم الصراع مع أشواقه المتناقضة، مع علاقاته المتناقضة، مع كل تناقضات الأشياء والأحداث والأفكار.. يريده أن يضجّ صراخ الكائنات في عظامه.. وفي أوردته تركض الأنهار والغابات والصحارى والمدن وقوافل المواسم العائدة والمهاجرة.. يريد تمرداً على الألم السطحي المتسكّع الغافي على نتن مستنقع:

ألم التفاهـــة عفتــه ومللتــه   وحننــت للألم العميــق الملهِم

البداية مقبولة عنده حين تكون ولادة مطرٍ عاشق، حين تكون ميلاد واحة في صحراء اللهب القاحل:

(الحب.. واحة عمرنا، كم حومت   في فيئها وظلالها صحرائي)

والنهاية مقبولة عنده إذن، لا بكونها نهاية، بل بكونها طرفاً في جدلية الولادة والتجدد.. فالنهاية - في هذه الحال - بداية:

(سنحيا، سنحيا في عميق قبورنا   كنازح تبرٍ من غياهب منجم)



قلت: تلك هي قضيته، عبد المطلب !.

ماذا عنيتُ؟ . هو يرفض أن تكون قضيته (كفرد) أي قضيته هو بعينه، بوحدانيته، بانفصاله عن (الآخرين) وعن الأشياء، بهجرته عن كل الأنهار والغابات والصحارى والمدن وقوافل المواسم العائدة والمهاجرة.. هو يرفض (خصوصية) رفضه وقبوله:

(جراحي جراح الكون، لستُ بمفرد   ولا أنا باللحن النشاز بمغرم)

القضية عنده هي قضية هذا الكائن (الآدمي)، بكل «وجوداته»..

المنتشرة، بكل علاقاته التي يخلقها ثم تخلقه من جديد..

(... وأؤمن بالإنسان قدرة خالق،   وتجسيد إبداع، ورمز تقدم

وثورة مسحوق، وعزة ثائر   وسحقة منخوم بأقدام معدم)

صحيح أن له (خصوصية) قضية.. ولكن الصحيح الأساس أن عبد المطلب لم يكن شاعراً وحسب، إنما هو - مع ذلك- مفكّر. كان ينطلق شاعراً

ومفكراً، من منطق فكري ثوري يستوعب حدوده، وينهج منهجيته في فهم الأشياء والأحداث وقضايا المجتمع.. هو ينطلق إذن من موقف واتجاه. فهو قادر - من هنا - أن يضع (خصوصية) قضيته في إطارها من (عمومية) قضية الإنسان - المجتمع. وقاعدة تفكيره وموقفه هي التي تحدد هذا الإطار، فهي التي يرى - في منظورها الثوري - أن الإنسان (قدرة خالق وتجسيد إبداع، ورمز تقدم، وثورة مسحوق، وعزة ثائر، وسحقة متخوم بأقدام معدم).

من هذا المنظور الثوري كتب الشعر عن أحداث (الوطن، والعالم، والتاريخ):

- منه كتب عن صاحب (نهج البلاغة):

(شرف المناصب أن تطأطئ للذي   للشعب طأطأ رأسه مختاراً)

- منه كتب عن دمشق - الأم:

(ثغر الشآم أعز في عُرف الهوى   من أن يُنال تحدياً وتعمُّدا
ثغر الشآم لقبلة معطاءة   كفم الحبيبة عابقاً وموَرَّداً
لكنه شرس شراسة لبوة   أعطت بنيها كل ما ملكت يدا
...البؤس، بؤس الجائعين، تراثنا   نحييه بالثورات إن مات الصدا)

- منه كتب عن اختلال الموازين في مجتمعاتنا العربية:

(.. وروائح البترول تزكم أنف كل الأنبياء

تطغى على نتن الجريمة في دهاليز الثراء

... يا شعب جرحك في يديك، وبين كفَّيك الدواء).

- منه كتب عن (النظام الشائخ) في لبنان:

(.. قل للطغاة السادرين بغيهم حان القطاف: أأرغموا أم شاءوا

.. لاشيء إلا الشعب حي خالد والباقيات سفاسف وفناء

كل الطغاة على تراب نعاله تهوي وتُسحق: رمّة شوهاء)

- منه كتب قصيدته التاريخية عن حسني الزعيم (يرثي) فيه (طاغية وكل طاغية).

- منه كتب، بعد هزيمة ١٩٦٧، قصيدته الساخرة - الجادة الموجعة.

- منه كتب عن (بورسعيد) إثر العدوان الإمبريالي - الصهيوني المثلّث:

(للذائدين عن بور سعيد

سجد اللظى وعنا الحديد

واستسلم القدر العنيد).

- منه كتب عن الشهيد غسان كنفاني:

(... فقد كنت الكلمة

الكل، الكل، الكلمة

كالبرعم والصلد كالصخر وكالورد).

- ومن هذا المنظور الثوري ذاته كتب عن شهر أكتوبر الإشتراكي و (الحالم الكبير) لينين:

(أيهذا الحالم الفذ الكبير   أيهذا المالئ الدنيا عبير

أيها الشعب الذي أنبته   تنبت الدوحة من خير البذور)

***

.. ولكن، حين كان يعاني (خصوصية) قضيته بتوتر بالغ، أي في حالات استغراقه المأسوي بالمعاناة إلى أقصى حدودها، كان يستدرجه ضغط التوتر إلى الرحيل عن الإطار الذي تلتحم فيه قضيته بقضية (الآخرين) فيهاجر في ظلمات (الوحدة) و(الغربة).. وهناك - أحياناً - كانت تغيب عن منظوره (نجمة الصبح) فينسحق معناها - الرمز، ويتفتت حطاماً ورماداً في نزف (الجرح):

(نجمة الصبح ! يا حطام الليالي   ورماد اللفُّافة السوداء

خلفتك الظلماء عقباً ذليلاً   تحت أقدام كبرياء الضياء..)

تحت وطأة هذه الحالة من معاناته، انسحقت وتفتت أيضاً جدلية (البداية والنهاية) ذاتها، رغم كونها البداهة البارزة في انطلاقاته الفكرية:

(خالكِ[1] الناس كالبداية عنفاً   واتقاداً في قبة الجوزاء

---

(١) الخطاب هنا إلى (نجمة الصبح).

وأرى فيك من نهاية عمري ذلة الأوب وانكسار العزاء)

البداية هنا وحدها بقيت في بكارتها: عنفاً واتقاداً.. أما النهاية، فلم تبق ميلاداً جديداً للبداية، لقد فقدت العلاقة بينهما جدليتها، وفقدت النهاية – بذلك – كونها عزاءً إذ انكسر العزاء بانكسار هذه العلاقة..

غير أن الوقوف عند هذا الحد، هو تبسيط وتسطيح للواقع النفسي هنا. فنحن نجد، في ما يوحي به هذا الواقع من خلال اللغة الشعرية، تشبّثاً مكبوتاً بتلك البداهة الفكرية.. نراه هنا حتى وهو في هذه الحالة القصوى من مأسوية المعاناة، حتى وهو هجرة (الوحدة) و (الغربة)، يتلمس جدار الظلمة بحثاً عن جدلية تلك العلاقة.. نراه يخترق الجدار بعينيه إلى (نجمة الصبح) متلهفاً أن تعيد إلى سكرة (الجرح) صحو الفكرة – العزاء، حضور النهاية – الميلاد.

هذا التشبّث اللاهف، الظامئ، الصارخ – هو الخيط الدليل لنا، يكوكب في شعره بين كل الخيوط الأخرى، لنرى في بريقه سائر الخيوط الموصلة إلى (عقدة) المشكلة، إلى (خصوصية) قضيته.. هذا التشبّث يقودنا إلى لمس هذه (الخصوصية) المأساة.. كان عبد المطلب يرى قضيته بوجهيها: يرى الكأس هي سكين (جرحه).. ويرى الكأس هي ضماد (جرحه).. هذه الرؤية كانت مصدر الفاجعة في واقعه النفسي:

(.. أنت نايي يا كأس، والنغم الحلو عطاء من كفك الخرساء
أنت حطمتني وسقت حياتي في دياجير هذه الظلماء

أنا لولاك جذوة من طموح لم تسعها مدارج العلياء

ثم ماذا؟.. أخون فيك صديقي، وسميري وسلوتي، وعزائي؟..)

.. هو كان أكثر من (جذوة الطموح).. كان طاقة بحجم طموحه تتوزع في طاقات، كل واحدة منها بحجم الطاقة - الأم .. ثقافة مكتنزة عمقاً وشمولاً، شاعرية مرهفة لها شفافية الصحو الربيعي المشمس، نفاذ فكري يخترق الظاهرة الكثيفة إلى جوهرها اللطيف بلمحة واحدة لها وهج شلال من الضوء، قدرة على التكيّف في مناخ كل ممارسة وكل سلوك وكل بيئة بشرية، صلابة في الموقف المبدئي لها تماسك الفولاذ ومرونته في وقت معاً.. مع كل ذلك، كان في يوميات علاقاته الاجتماعية، لا ينكس رأسه لحاجة تذل أو تغري بأمر يؤدي إلى إذلال، على رغم ازدحام أيامه بمثل هذه الحاجات..

كاد (الجرح) يستنزف طاقاته. وهنا مكمن المأساة.. لولا هذا (الجرح) النازف المستنزف، لكان الذين قرأوا نبأ موته في الزوايا (الخلفية) من الصحف، قرأوه عناوين عريضة في صفحاته الأولى في كل العواصم.. كان هو مشحوناً بروعة هذه الفاجعة.

من هنا كان تشبّثه ببداهته الفكرية تلك حتى في حالات انكسارها، أو اهتزاز مراياها، عند استغراقه الكلي في المعاناة..

***

بقي الشعر هذا الملجأ الوحيد - في الغالب - لتفجُّر طاقاته. ولكنه التفجّر الأفقي المندفع خلال قشرة الإحساس، لأنه كان يأتي - حين يأتي - استجابة لتوترات عفوية آنية يدفعها من العمق إلى السطح، اشتداد نزف (الجرح)

حتى يتنفس (الجرح) ثم لا تُمهَل كي ينزل بها التفجّر عمقاً إلى الخزان الثقافي المحشود بتلك الطاقات.

ذلك كان شأنه في أغلب حالاته الشعرية، إلاّ حين تكون الحالة الشعرية استجابة لواقع (الوطن، والعالم والتاريخ) كمثل تلك الحالات التي كتب فيها الشعر انطلاقاً من منظوره الثوري (أشرنا إليها سابقاً). حينذاك، كان الشعر يتفجّر بعمق من منبع طاقاته الفكرية المخزونة، ولكن سمة العفوية التي اعتادها في شعر (قضيته) كانت تترك بصماتها على بناء هذا النوع الآخر من كتاباته الشعرية.

سمة العفوية هذه انسحبت أيضاً على تعامله مع اللغة الشعرية في معظم ما كتبه شعراً، بل انسحبت كذلك - أحياناً- على تعامله مع قواعد النحو والعروض، رغم امتلاكه الوثيق لكل أدوات اللغة الشعرية وقواعد النحو والعروض..

كانت استجاباته للحظات التوتر النفسي، تندفع بقسرية حادة، وبفورية لا تمهله أن يتوقف ليقارن ويختار ويستصفي، ثم ليبني قصيدته بروية وتدقيق وإحكام، مع كونه - لو أمهلته - يملك العدّة الكافية، بل الغنية، لدقة الاختيار وبراعة الاستصفاء، ثم لإحكام البناء الشعري وإتقانه.

***

..حكاية (الجرح) امتدت ظلالها - بعد - إلى علاقته بمسار حركة الشعر العربي الجديدة، في مراحلها الأخيرة خصوصاً.

هذه الظلال كانت تحجز بينه وبين ممارسته تطوير تلك العلاقة، فحرمتْه - وحرمت الحركة الشعرية نفسها - الدور الذي كان مؤهلاً أن يبرز به ويتألق في المسار الجديد للحركة، بما كان يدّخر من طاقات التطور الإبداعي، لا في كتابة الشعر وحده، بل أيضاً في كتابة النقد الأدبي، وهو الناقد المترع بحساسية جمالية فائقة الرهافة، تقترن بإضاءات فكرية زاخرة. فإذا كان هذا الذي نقدمه من شعره - وهو بعض شعره لا كله - يتخذ مساراً يتقاطع حيناً، ويتوازى حيناً مع مسار حركة الشعر الجديد، فذلك هو تفسيره الوحيد، وليس صحيحاً تفسير بتخلف عن هذا المسار.. إن عبد المطلب كان أزخر طاقة وأقوى طموحاً وحيوية، وأشد اندفاعاً للإنطلاق والتطور والتحرر من أن يتخلف عن قافلته.. ولكنها فاجعة (الجرح) واأسفاه !..

***

كتبت هذه الكلمات - المقدمة - بمعاناة قاسية.. كان حضور عبد المطلب كاملاً: حديثه، وجهه، ضحكته الحلوة - المرة، (جرحه)، ألمه (العميق الملهم)، مرحه المتدفق من نبع الحزن، حزنه المعشوشب بالفرح، نبرته المتوهجة بحبه ونقائه ونكهة ذكائه.. كان حضوره كاملاً. لم أستطع كتابة كلمة واحدة دون حضوره.. وهنا قسوة المعاناة.. أردت أن أكتب بعيداً عنه، أن أراه من بعيد لتكون الرؤية غير مشبوبة بوهج العلاقة بيني وبين التفاصيل الحميمة الأليفة. لقد حاولت هذه الرؤية بمجاهدة هائلة مرهقة. وبزعمي أن المحاولة ليست خائبة، ولكنها أقسى معاناة عرفت..

١٩٧٥/١/٣٠

أشـــعاره



أن نكون أو لا نكون

ماذا يقول العاشقون،
ماذا يقول المائتون،
ماذا يقول الميتون؟.
سأموت.. ماذا بعد؟ سوف يفلسفون
أسيضحكون ويسخرون
ماذا بهم أسرى المباسم والعيون
وعلى الشفاه تُضيِّع المأساة
في صخب المجون
سيقال سكير تقاذفه القناني والعيون
سيقال عربيد متاهته الصراحة والجنون
سيقال ... قد قيل الكفاية. فاطمئنوا لن يكون
إلاّ بعيض الـ (كان) قد يكن اليكون

كبر الحساب فلن يسر الدائنون.

عفواً شكسبير العظيم فقد يهون

أن لا نكون.. إما نكون بلا حواس ولا عيون

وبلا عزاء ولا ثغاء ولا عواء ولا شجون

وبلا غناء ولا نحيب ولا اكتئاب ولا حنين

وبلا عطور ولا شفاه ولا وفاء ولا كمين

يصطادنا نصطاده.. عاش الكمين

ان نستقي الأقداح شرهاء الضلالة والرنين

أو ننهش الجسد الطري بلا اشتهاء ولا أنين

أو نبلع العيش الهني كحبة من أسبرين

لنسكّن الأوجاع.. أوجاع التفاهة والسكون

إما نكون أو لا نكون

بلا غباء ولا ذكاء فنستكين

أو نضمحل ونستجير ونستعين

بالغيب بالخدر الذي يعمي العيون

بحشيشة القدر المبطّن بالألوهة والظنون

إن كان للأقدار مبصرة عيون

أن لا نكون أو أن نكون

تلك القضية.. يا لوعثاء السنين !؟

وأخيبة الوعد المضرج والحزون

وأضيعة الجرح المضمخ للشفاه وللعيون

وأوحشة اليأس الذي عضته أنياب المنون

أما الصَّدا .. أما الرَّجا.. أما الفتون..

استغفر الأحلام. واخجلي من الرؤيا الحرون.

***

غربة

(يا غريب الديار إني غريب) صمت الكون فالفناء المجيب
منطق يسطع الحياة ويزري بالمفاهيم.. فالعليل الطبيب
غربتي، يا غريب،، موت كئيب والردى كالحياة نتن وطيب
ودروب الحياة مهما استطالت فهي في خطونا الملحّ، دروب
وهي في سيرنا الوئيد أمان تارة ترتوي وطوراً تذوب
الورود الشذى ونفح الأماني والتهاويل والصبا المجلوب
الورود العنقاء تجثم قسراً وشذاها المحموم طيف غريب
الورود البلهاء عطراً وشوكاً وشذاها على الأنوف مريب
ما شممنا من الحياة عطوراً لا ولا خالج الأنوف طيوب
نتن العيش أصبح اليوم عطراً وصدا الجيفة اليوم طيب

***

وحدتي

وحدتي هذه العروس الغلامة مهرها الصمت والشجى والمدامة
عسل شهرها وكل شهوري من جنى اليأس والضنا والندامة
في فراشي تضمني وتغني وتشد الصدى بحبل السلامة
وحدتي الجبن؟ ! لا، وعين المنايا موكب المجد في حماها قلامة
وحدتي وحدة النبي بحراء رسالة مشبوبة وتهامة
أنا من جيلي المضيّع صوت أنا من تعتع الضياع كلامه

***

عُودِي

عودي ولا تصغي لمرّ شكاتي فلقد حبست على الهوى زفراتي
ردّي عليّ هواك مجنون الرؤى بَهِج الكؤوس معطر السكرات
تزهو مطارفه بوشي غوايتي وتضوع شعلته بنور حياتي
شفتي وكاسك ظامئان فهلّلي للماجنين: الخمر والقبلات
وتخيّري لحن الخلود تصوغه شفة الشباب وأنمل الشهوات
يمضي العفاف ولم تبلغك المنى أحلامه ذهبية الغفوات
أتعود أحلام الصبا مقهورة عن معقل الطهر المنيع العاتي
مالي وللماضي تثير شجونه هذي الشفاه الخرس بالبسمات
حسبي طوافاً في دوارس عهده متعثراً ببلاهتي وأناتي

***

أهوى العمى

صمت الظلام فكيف ينطق نيّر   العمق يصمت والغباء يثرثر
والنور أين النور إن ساد العمى؟   جنح الظلام أعفّ منه وأطهر
ما لوثته دمامة وتبذل   ظل الحجاب عليه يسدل يستر
أهوى العمى وأحبه في ناظري   فالقلب في ظل العماية أبصـر
العين تعجز أن تحس جمالها   لولا صدى المرآة يعكس يبهر
والنهد في عين الأنامل جمرة   وعلى الشفاه تصوُّف وتحسـُّر
ومع العيون إذا سما رمانة   تختال في أخواتها تتبختر

***

العمر عرض وطول

كاسي يقصّر عمري وما حفلت بعمر
فالعمر ساحة لعب كراتنا فيه تجري
أهدافها إن تسجل فذاك وهمٌ بنصر
وهم المشوق المعنى والمستجير بعمرو
العمر عرض وطول فهل يقاس بشبر؟

***

صليبي

ماذا أقول لماضي الذي ذهبا ... ماذا أقول لآتي الذي هربا
ماذا أقول ليومي بعدما لمست ... شفاهه بدل الأيقونة اللهبا
وكيف ألقي صليبي باهتاً خدراً ... وقد صلبت بأوهام الذي صلبا
ماذا أقول لأشباحي وأخيلتي ... ماذا أقول لنبع الشعر إن نضبا
ماذا أقول لهذا (الحب) والهفي ... هل نلتقي؟ يالعهر الحب إن كذبا
أنا التقينا ولكن في ظلال أسى ... أنا التحمنا ولكن في متاه هبا
أنا التقينا على أشفار هاوية ... ضل الضلال فلم يغدق ولا سلبا
ماذا أقول لماضي الذي سُلبا ... ماذا أقول ليومي بعد أن شحبا
سأقول ... لا أدري لا يهمو ... سأقول إني دمعكم سكبا

***

الألم العميق

أأخي عمري كالسهام أجرها	من ساحق الأعماق في الجرح الظمي
دفق الجراح سنيناً إن عددتها	ودقائقي القطرات تقطر من دمي
نزف الشباب وقبله نزف الحجى	وبقيت كالشبح الكسيح الأبكم
أجترّ آهاتي وأعصر مهجتي	أقتات من جود السراب المعدم
والشعر حتى الشعر غيِّض رفده	وتضاءلت ومضاته في مبسمي
لم يبق لي إلاّ الكؤوس نواصراً	وبلاسماً في مهجتي في أعظمي
في ليلي القزم الطويل ملالة	وتفاهة، ونهاري المتجهّم
في موكب الأيام يعبر مثلما	مرّ الذباب على جفون الضيغم
يؤذي ويزعج أو يحرك هاجساً	من تافه متبذل مستسلم
ألم التفاهة عفته ومللته	وحننت للألم العميق الملهِم
وتلومني ولأنت موئل غربتي	وملاذ تحناني وجهد توسّمي

وتلومني ولأنت في قلبي صدى ... للباقيات الصالحات بمعظمي
ولأنت بعد أبي عبير صبابتي ... إكسير تحناني وكل تتيمي
الحب عمّار القلوب ورفدها ... ودليلها الهادي بليل معتم
لم ينفتح منه بقلبي وامض ... إلاّ عليك فأنت من قلبي فمي
وأنا الذي شرعت قلبي للهوى ... فتجاهلت بله الرياح تعشمي
كان التزمت بيننا أسطورة ... يا ليتها محيت بحسن تفهم

***



الحياة المسخ

تضاءل العمر وانهارت مهابته حتى استحال تساجيعاً وأوزانا
فاليوم كالأمس إغفاء على شجن ويقظة لا تعير العمر آذانا
وبعثر الغد يأساً أو محاولة للمستحيل تحيل الكفر إيماناً
وتاهت السفن البلهاء في فلك من التناقض ألهانا وأعمانا
فلا الحياة ورود بعده صدر ولا النهاية تبرير لدنيانا
وُقيد العقل لا رفد الخيال له ظئر ولا عبث المجهول واسانا
ولا التبذل أو أخذ الحياة على علاتها وهب الضليل ربانا
نحن الذين يئسنا هل لنا أمل في أن نعود عبابيداً وأوثانا
فيرجع الحجر المعبود متكأ لعجزنا وركوع اليأس منجانا
أم أننا في تمادينا وعزتنا لا نرتضي في غمار اليأس إذعانا
ولو خضعنا ولو غالى تمردنا ففي الحياة عزوف عن قضايانا

بئست حياة نسيغ المر من فمها ... ولا نُحسُّ حلاه من ثنايانا
سل الحياة ألما نعطها دمنا ... ورفدنا وتعاطينا منايانا
تلك الكؤوس شربناها على مضض ... ومذفرغن سلون الكأس وألحان

***



ليل

مَلَّت الحانة من سمّارها ... وتجافى الكأس عن معموده
وانطوى الليل على أشباحه ... يصطفيها من رؤى عربيده
لم يُبْقِ السهدُ من أسراره ... نعمةً تغري على تسهيده
تشتكي الأطياف جهداً وظما ... واكتئاباً في قيافي بيده
تسقط الألحان صرعى صمته ... كلما تمعّن في تبديده
ثائر في قيده مستهتر ... بالذي أغرى على تقييده
أخرس يومي فما تفهمه ... إنما تجزع من تهديده
وهو لو أفصح عن أشجانه ... لم يدع شاد على تغريده
ولصاغ الليل لحناً كامداً ... يوحش الدنيا صدى ترديده
فإذا الغيلان من سماره ... وإذا الجن نشاوى غيده
موكب لليل يحدوه اللظى ... تعجز الأوهام عن تقليده

***

دمية الماخور

صُبيّ فلن يصحو الفتى المخمور ما شعّ في الدنيا طلا وثغور
وهت الحياة فما يحرك حسها وهج صلاه غرامك المأجور
فاستنجدي بالكأس علّ حميمه يطغى على أعصابه فتثور
واسقيه حتى ما يحس كرامة لشبابه يندى بها الماخور
واسقيه حتى ما تظل مآثم للشاربين ولا يظل فجور
واسقيه حتى ترتوي بدمائه احشاؤك الظمأى خنى، وتفور
واسقيه حتى يستفيق خياله ويعود يخفق جنحه المهصور
خفقان أجنحة الحبيس يهيجه مرأى البواشق تعتلي وتطير
هي ساعة فاستنزفي متع الخنى فيها ويطوى عارها المهور
وإذا فتاك خيالة من شهوة تهذي، وظل للشجون يسير
يا دمية الماخور أين عن الهوى هذا المجون الفاتر الممكور
متبذل اللذات مشلول المنى سمج الدعابة بالونى مغمور

قبل تزق ولا لهيب ولا لظى — تطفو به حمى الهوى وتدور
ومحاسن كلف الذبول بطيها — وُئِدَ الشباب بها وغاب النور
لو لم تكن حواء أكرم منزلاً — ما قلت إلاّ (جيفة ونسور)
أين الشفاء عن اللذاات العلى — أم أين عن هرج الخفوق صدور
أين العيون يشع من أحداقها — للنشوة الكبرى سنى وسعير
أين الخيالات العذاب يلفها — لليل منضود الوساد وثير
تتناقل الهمسات مسـروق الخطى — فيه ويعذب جرسها المسحور
وتطوّف النعمى فيلقف حالم — من فيضها ومسهَّد وسمير
أواه ما في ليلك الدامي سوى — حرق يداعبها الأسى ويثير

***



الجواب المريب

إلى أين يمضي بنا ركبنا عنيفاً لجوجاً على عمرنا
وحتّام يعصف فينا القضاء وتودي الرياح بأسمالنا
أكنا من الكون ألعوبة وهل أبدع الكون إلاّ لنا
ومن أبدع الكون ؟ حاشا الإله أيهوي إلى لهو أطفالنا
وحتى الصغار إذا ما لهوا ففي لهوهم دفقات المنى
ونحن الكبار بآمالهم صغار بخيبات آمالنا
صغار لأنّا بعرف الحياة نفلسف أسفاف أوهامنا
ونزعم أنّا كبار النفوس ولكن واقعنا خاننا
ومن ساقني للنفاق الدني على النفس مشكلتي أم أنا ؟
ومنذا يجيب على سؤلنا أصمت المقادير أم صمتنا؟
مللنا انتظار الجواب المريب فكنّا الجواب على سؤلنا

***

نجمة الصبح

نجمة الصبح يا حطام الليالي ورماد اللفافة السوداء
خلّفتك الظلماء عقباً ذليلا تحت أقدام كبرياء الضياء
أنت للنائمين إشراق صبح ولعينيَّ هجعة الظلماء
خالك الناس كالبداية عنفاً واتقاداً في قبة الجوزاء
وأرى فيك من نهاية عمري ذلّة الأوب وانكسار العزاء
جرّني الكأس للحياة فأدمى قدمي البكر بالسّرى والعياء
أنا لولاه مُقْعد في سرابي وأسير لوحدتي وانزوائي
لامني الناس في رفاقة كأسي يحرمون الأعمى عصا الاهتداء
ويرومون أن أغني وأشدو في زوايا مقابر الأحياء
أنت نايي يا كأس والنغم الحلو عطاء من كفك الخرساء
أنت حطمتني وسقت حياتي في دياجير هذه الظلماء

أنا لولاك جذوة من طموح   لم تسعها مدارج العلياء
ثم ماذا، أخون فيك صديقي   وسميري وسلوتي وعزائي
لا وعينيك أيها السم فافتك   بالسقيم المنهوك من أحشائي
أعوزتني صداقة الناس فاملأ   بحطام الأوهام فقر فضائي

***



وضاع العمر

ضلال العمى وضلال البصر　　　وحمّى الملال وحمّى السفر
ودفء الضياع ودفء السكون　　　وُجوْدُ التفاهة في المنتظر
وشحّ المعين وبذل العفاء　　　وما في المنى من قصور النظر
وما زخرف الغيب من موحلات　　　وما بعثر اليأس من مُدَّخَرْ
وما كوَّمَ العجز من شامخات　　　وما خرَّب الحسن في ما عمر
وما دنس الطهر من طاهرات　　　وما صوَّف العهر فيمن عهر
بغاء العفاف صراخ السكون　　　جفاف العطاء ومحل المطر
وهذا العواء الرتيب النشاز　　　وهذا العزوف الشريد الفكر
وهذا المتاه السديد الدروب　　　وهذا الفراغ البليغ العبر
وما بين هذا وهذا وذا　　　تمادى المتاه وضاع العمر

***

أمسي ويومي وغدي

يا أمس، يا غد، يا يومي ! بأيكمُ ... أنمي وأرثي واستوحي وابتسم
أنتم حياتي تسامت في تناقضها ... فما تبذّل إلاّ حين تنجحم
يومي وأمسي، وأخشى أن أقول غدي ... غرقت في الألم الساجي وما علموا
كأنني لم أعش أمسـي ولا عبقت ... بين الشفاه عطور سمحة ودم
كأن تلك الدنى أشباح واهمة ... لا أكؤس لمعت فيها ولا نغم
تَبَالَهَ الزمن الواهي فمر بها ... مر الكرام: عيون أوصِدَتْ وفم
واليوم ؟ يا لشقائي اليوم لا ذِكَرٌ ... ظئر الربيع ولا شاه ولا نعم
أما الغد المتناهي في غباوته ... فما تلّفت إلاّ حين يتهم

***

حلمي المخمور

يا حلمي المخمور من روَّعك ؟ ويا ظلام الصبح من أطلعك؟
حتى على الأحلام ران الأسى يا مصـرع الأحلام ما أروعك !
يا كوكبي الهادي ويا جنّتي ما أظمأ الدنيا وما أترعك !
مات الهوى والشوق في مهجتي وماتت الآهات إلاّ معك

***

نداء البعيد

تناهى النداء إلى مسمعي فما هدهد الحلم في مضجعي
وما هزّ حتى شهي السهاد ثقيل الظلال على مهجعي
نداء البعيد بعيد الصدى غريب الرنين على مسمعي
تجاهله القلب في وحشة وما هزّ من حوله أضلعي
نداء القصي القريب البعيد تزيفه حلة المدعي
نداء الدعي بأوهامه بان على العهد ذاك الدعي

***

شريد

في أي صقع أستقرّ وأسكن ... ولأي ظل أستريح وأركن
ألف السرى قدمي فما يحلو له ... إلا التشرّد فهو أشرس أرعن
من كل أرض في نعالي غبرة ... ولكل ريح في ثيابي مسكن
الليل بيدائي على ظلمائه ... تاهت خطاي وضاع ما أتبيّن
أهوى الظلام وعمقه وسكونه ... ورؤاه لا تزهو ولا تتلون
سوداء حالكة ولو ناجيتها ... لفتنت منها بالذي لا يفتن
حجبت مفاتنها فلم يطلع على ... دنيا الورى إلاّ سراب أدكن
حفّت به الأشباح ناشزة المنى ... مجنونة صخّابة لا تذعن
يا سائلي... حلم الشريد تشرّد ... ومصير رحلته ضلال بيّن
طال السرى فيه وذي قدمي وهت ... وتلكأ الجرح القديم المزمن
سالت دماء الجرح تهدي تائهاً ... ضلّ الطريق وسائراً يتبيّن

بالأمس كنت إذا ألحّ على دمي — نزفي وناء به الجريح المثخن
تأسوا جراحاتي يد مجهولة — ليست يداً تهب الأذى وتمنّن
قد كان دربي في شعاب غضة — يندى به الحجر المطيع الليّن
قد كان في هذا الظلام تعلّتي — وسرابي العذب الذي لا يأسن
قد طال للوادي الخصيب تطلّعي — وحنين تطوافي الطويل الموهن
لي في حنايا الوادِ أهلٌ ضيّعوا — أثري وفي أحشائه لي موطن

***

سويديّة

ذكراك في ظمأي وفي بيدائي
كالظل يجذبه خيال الماء
فهما غريبا الدار في الصحراء
صبراً على السراء والضراء
يتحدّيان لوافح الرمضاء
ويداعبان حواشي الإمساء
ذكراك في عنتي وفي بلوائي
مرّت أناملها على أحشائي
تستلني من غمرة الأدواء
وتعيدني لعوالم الأحياء
وتصوغ من صبري ومن إعيائي
أسطورة الآمال والأهواء

وبموكب الدنيا على إبطاء

جرجرت خطوي واستعدت مضائي

ومضيت في درب الحياة النائي

متلفتاً متلهفاً لورائي

قدّامي الدنيا وثم إزائي

من طيفك المشحون بالأصداء

شبح هو الدنيا على استعلاء

أهواك في الأوحال والعلياء

***

ما أنتِ ؟ ماض كلما ذكر الهوى

تطوي مواكبه السنين على الطوى

فتشل ما فعل الزمان والنوى

وتطيح بالأمل الممض وبالجوى

***

أو تذكرين الليل كيف مشى بنا

للخيمة السوداء كيف أظلنا

أوتذكرين وقد بنى من شوقنا

وغرامنا المنهوم شامخ عشنا
أو تذكرين الساعدين وعنفها قد لفّنا
ما أنتِ؟ ذبت كما أذوب به أنا
لهفاتنا لحن الحياة وصمتنا
أوتارها قد شلها صدأ الونا
أو تذكرين الحب يهدم ما بنا
ويفيض من عينيك إشعاع المنى
سمت السعادة عن مفاهيم المنى
فنشدتها في الموت سعدا هيّنا
أو تذكرين مذ انتشينا والدنى
تسعى مراشفها على أقدامنا
تقتات من دمنا وتسرق عطرنا
وتلم أعقاب السعادة حولنا
ولوافح الحمّى بلاهب ثغرنا
وثمالة المهدور من كاساتنا
لتصوغ منه للحياة مفاتنا؟

***

محمومة الشفتين

محمومة الشفتين لو نطق الدم ... لم يَعْدُ ما تهذي به وتتمتم
حَلِيَ البيان بها ونمنم حسنها ... ولطالما زَان البيانَ منمنمُ
آمَنْتُ بالظمأ الذي لا يرتوي ... وفُتِنتُ بالثغر الذي لا يبسم
هو في لماك لبانة منهومة ... وعلى شفاهك شهوة تتكلم
مَرَّتْ بها القبل الظِّماء كليلة ... لم ترتعش شفة ولم يخفق فم
ظلت تحن إلى مباهج أمسها ... أيامَ تَنعَمُ بالغرام وينعم
أيام كان العمر في آلائه ... شفة ترف وقبلة تتلعثم
وهوى يطوف على الكؤوس فتنتشي ... ورؤى تمر على الجهاد فيحلم
دنيا كما شاء الشباب رحيبة ... ريانة صخّابة تتبسم
خلقتْ بها شفتاك معجزة الهوى: ... متعاً إذا سُئِم الهنا لا تُسأم
قُبلاً كألحان الجحيم مُرِنّة ... هوجاء تعصف بالشفاه وتهدم
قد صُنتها عن راحم مترفّق ... ووهبتها لمغامر لا يرحم
راض الشفاه على العنيف المشتهى ... نصر الحياة بجامح يستسلم

***

الحب

الحب واحة عمرنا كم حوّمت
في فيئها وظلالها صحرائي

ما بلل الظمأ القديم صبابة
تهب الهجير طراوة الأنداء

كانت لذاذات وكانت صبوة
والحب عنها كالغريب النائي

الحب والإنسان صنوا دوحة
نبتت أصول جذورها بسمائي

الله يرعاها ويسقي غرسها
بالدمع بالآلام بالأسماء

واللحم تسلية الذئاب وحلمها
ما ذقته إلاّ كفاف غذاء

هو جيفة إن لم يعطره الشذا
هو نهشة بتكالب وعواء

***

ذكراك، يا ظمأ الهجير إلى الندى
وتطلع البأساء بالنعماء

ذكراك، يا ماض أفاض وكم سخا
وكسا الحياة روائع الآلاء

ذكراك، يا ظل الربيع على الربى
وتَفتُّح الواحات في الصحراء

ذكراك، يا أمل الخريف برجعة
للزهر للأفياء للأنداء

***

إكسير الهناء

وطفت على كأس الحياة سخية　　مشحونة الأوتار بالأنغام
ونسيت أني جائع ثكل الهنا　　لو لم يشعشع نجمه في جامي
أنا من منحت العمر إكسير الهنا　　من فيض بوهيميتي المترامي
فلسفت هذا العمر فلسفة الأولى　　عرفوه معرفة الشريد الظامي
في حانتي في وحشتي وظلامي　　في زحمة الأسقام والآلام
هبت على القلب الرضيع نسيمة　　للذكريات عطورها بعظامي
فاستيقظ القلب الملول وضاع في　　صمت السعادة واقع الأيام
ومضيت أجترّ الزمان ورفده　　وصداه والموءود من أحلامي

***

فداء لعطرك

فداء لعطرك هذا الدم   وخفاقه الصارخ المِلهم
وما ثار في الصدر من عاصفات   وما يعلن القلب أو يكتم
فداء الشذا وفداء العبير   جراحاته الصم إذ تبسم
تماوجن كالشوك في ورده   ولم أر كالشوك لا يرحم

***



انتهيت ...

انتهيت انتهيت انتهيت...
وماذا بعيد اللتيا وليت
أألقى الحياة بثوب الضنا ؟
وألبس للعيش أطمار ميت ... ؟
تناهى الضلال بأقداميه
أبعد المتاه سكون لبيت؟
نفحت الحياة شواظ المنى
وحتى (الكويت) - وبئس المقام-
تنكر لي اليوم حتى (الكويت)
مضيت ابتغاء السلو الحزين
إلى عالم جاهل إن مضيت

وطوّفت في السجف الحالكات

وملقت حتى الذي قد أبيت

ورضت الجموح الأبي الشموس

إبائي.. وإذْ ذاك قلت انتهيت

***

ذكرى الشريف الرضي

ألفٌ مضين وجرحك المدّار | شرف رضي شامخ معطار
نهج البلاغة ورده ومعينه | ومصبّه الصابيُّ أو مهيار
شطآنه الشَمَمُ الشموخ ورفده | قلم أقل عطائه الأشعار
بُرْدُ الخلافة إن تكنْ جُرّدْتَهُ | ما أنت عارٍ منه بل، هو عار
زعموا بأن النهج أنت رسمته | ونسبته وتقوّلوا وتباروا
قالوا بأن الوصف فيه محدث | وبان بعض بيانه أسرار
والله لولا (الشقشقية) لم يثر | جدل ولا حجب الستار جدار

***

ما أنت إلا من علي نطفة | كانت أصالتها هدى ومنارا
سميته نهج البلاغة حسبنا | أن الحفيد تتبّع الآثارا

وتعيش فيها بيننا في يومنا   في أمسنا مسترشدين صغارا
شرف المناصب أن تطأطئ للذي   للشعب طأطأ رأسه مختارا
لا من أقام على قمامة رأسه   كرسيه يتصيّد الأنصارا
قذر على قذر فثم تعانق   وتناسل ما أنسل الأقذارا !

***

أمي: دمشق!

طيبي دمشق ثرى وطيبي محتدًا
عبق الجنان على ثراك تجسّدا

وأشمّ تربك عاشقاً[1]، بل عابداً
طفلاً بأحضان الأمومة وسّدا

طال الفراق وما سلوت ولا غفا
ثمل بأنغام الوفا قد عربدا

بيتي القديم وحارتي ومدارسي
والحب والذكرى السخية والصدى

كم في دروبك من خطاي معالم
كالوشم إيقاعاً ورفقاً كالندى

كم في سمائك من خيالي موكب
للمجد كم راض النجوم وجنّدا

كم في رياضك من فؤادي صبوة
غنّى الهوى فيها وسار وأنشدا

أمّاه إن يقس الزمان فما قسا
قلب الوليد الطفل فيك بل اهتدى

لا تنكري يا شام حبي، لهفتي
أملي صلاتي وابتهالي والندا..

محراب حبك إن سجدت ببابه
سَجَدَ الوفاء ملوّعاً متنهّدا

(١) انظر ملحق الكتاب الهامش رقم (١).

وإذا الوفاء بكى الوفاء فحسـرة | وشراسة فيها العقوق تجسّدا..
أنا إن عققت فظلّ عفوك وارف | والباذل المعطاء إن أهدى هدى
حلماتِ نهدك يا دمشق تعلّتي | ماذا اختفى منها وماذا قد بدا
ورحيب صدرك قبلتي وتوجهي | ورؤى صلاتي عابداً متهجّدا
أهواك يا صنمي ويا معبودتي | فيك أعوذ به الإله تجسّدا
يا رب عفوك في كتابك، شامنا | من تحتها الأنهار تجري صعّدا
والثغر كم قبل به محمومة | شمخ الهوى فيها وتاه وأرفدا..
ثغر الشآم أعز في عرف الهوى | من أن ينال تحديا وتعمّدا
ثغر الشآم لقبلة معطاءة | كفم الحبيبة عابقاً وموردا
لكنه شرس شراسة لبوة | أعطت بنيها كل ما ملكت يدا
وحنان حضنك يا دمشق مضمّخ | فيه من الخبر اليقين المبتدا
لا تحسبي يا شام أني سائل | يبغي العطاء ويستطيب الموردا
الجوع أشرف من عطاء ممنن | الجوع نبراس لمن رام الهدى
الجوع سام جوعنا وممنن | للمتخمين وللظماء المهتدى
البؤس بؤس الجائعين تراثنا | نحييه بالثورات إن مات الصدى
أنا شاعر لو جمّعوا كل الدمى | أو قدّسوها زائفاً ومعمّدا

ما اختار إلاّ الكبرياء منارة بشعاعه وسوى الكرامة موردا
طفل أنا يا شام أهوى دفقة من ثديك الحاني وأغفو سيّدا
عيناك نبراس العروبة قائداً ثدياك ينبوع الكرامة والندى
كفاك والرحمات بعض شمائل منها لكم خشنت على وجه العدى

***

شاخ النظام

شاخ النظام ورثّت الزعماء   رخص الأماء ورخصهن غلاء
يا حارسي حصنَ النظام، وسوره   كالعنكبوت تهافتٌ وغباء
سيُدكّ هذا الحصن فوق رؤوسكم   شمشون قد نبتت له أبناء
بارت لتجّار الرقيق بضاعة   فغدوا أماء سادهن إماء
للاقتصاد الحر صاروا سلعة   تشرى تباع رهائن ووفاء
وإذا النظام بقضه وقضيضه   شبح أصم وصورة شوهاء
عبد لغول الاحتكار ودمية   يلهو بها التجّار والغرماء
غول الغلاء هم هم أنيابه   أظفاره أشباحه السوداء

***

أو لفتة للحاكمين (كريمة)   أقصى سماحتها سراب ماء
أو كهرباء لم ينيروا دربها   فدروبها كدروبهم ظلماء

والري لو صحت مزاعمهم به يسقي التراب وتظمأ الأحشاء
والأرض إن فقدت غرام حبيبها رغم الخصوبة قفرة جرداء
لم يبق للفلاح غير سياطهم فسياطهم لديونهم إيفاء
أسد عليه وفي الحروب (نعامة) خرقاء يفزعها صدى وعواء

***

لا شيء إلاّ الشعب حي خالد والباقيات سفاسف وفناء
كل الطغاة على تراب نعاله تهوي وتسحق رمة شوهاء
لو يقرأ التاريخ طاغية لما عصفت بتافه عقله الخيلاء
ولصان عن دوس النعال مصيره ولأسعفته فطنة وذكاء
لكنما التاريخ سفر قيّم لا يرتقي لنصوصه الجهلاء
والعلم والطغيان قطبا ذرة يتناقضان فسالب وعطاء
قل للطغاة السادرين بغيهم حان القطاف أأرغموا أم شاءوا
هل ينصف الضبع الزنيم فريسة أو ينقذ الحمل الوديع بكاء
هل تدرك الجلاد عفة راحم وشرابه، بئس الشراب، دماء

***

ياأرز قد مسخت غصونك نبتة ملعونة (اشعاعها) ظلماء
فالله شيطان بها وخلودها كخلوده أسطورة وفناء

إنا نريدك شامخاً كطموحنا ... أنف أشم وعزّة وإباء
إنّا نريدك خضرة فوّاحة ... يغني الورى ثدي لها معطاء
ثدي لتنشئة الجهال وآخر ... للعلم والعرفان فيه ثراء
إنّا نريدك ثروة وعدالة ... وهم بها يجنونه النقضاء
إن يؤمنوا بالعنف آمنا به ... أما الحوار فإننا البلغاء

***

إختلال الموازين

حكم القضاء على القضا　　حكم العمي على الضياء
حكم الهجير على الندى　　حكم الظلام على الصفاء
حكم السقيم على الشفا　　حكم الغبي على الذكاء

حُمَّ القضاء وفر ميزان العدالة بالسماء
أترى موازين السماء تضيق عن سنن الفضاء
فإذا انعدام الوزن يعطي كل ميزان سماء
وإذا موازين تخف فتستطير إلى العلاء
أما الموازين الثقال فللحضيض وللوراء
أتلوذ عذراء العدالة بالدعارة والبغاء
رحماك يا سيف السماء! الأرض حصن الأشقياء
أيصم سمعك يا سماء أيبحّ صوت الأبرياء
أنظل نصرخ يا عدالةُ أدركينا بالدواء
يوماً بترياق العراق وجَودِ أفيون الغباء

وحشيشة القدر الملطّخ بالنفاق وبالرياء
أم بالبيان العذب تمخط من أنوف الأولياء
أم بالوعود المترفات تزيد إسهال الغلاء

***

قد كان لي شرف الجلوس على أريكات القضاء
لم يغرني فضفاض ثوبي أو منصات العلاء
قد كان قلبي خلف قضبان الحديد وفي العراء
لم يقفل القانون أبواب السماحة والعطاء
لم يَمْحُ شوكُ متونه وشروحه روضَ السخاء
وطرقت باب المجدلية في دروب أبي الفداء
وصرخت في وجه الزناة الأتقياء الأدعياء
ملأوا فناء البيت والتحفوا تجاعيد السماء
الراجين المجرمين وفي مسوح الأنبياء
وصلبت ... بل صلبوا هم ونفاقهم ولي العزاء
المجدلية يا يسوع بلا نصير ولا ظهير ولا غطاء
فالبيت قصر الأثريا والقدس وكر الأدعياء
وروائح البترول تزكم أنف كل الأنبياء

تطغى على نتن الجريمة في دهاليز الثراء
والحاكمون الداعرون تعوَّدوا شرف البغاء
ألفوا أريكات النفاق على متاهات الرياء
يا شعب جرحك في يديك وبين كفيك الدواء

***

شلت يمينك يا قضاء غدارة بالأبرياء
مسعورة ظمأى لمص الطاهرات من الدماء
يا هادراً دمع الثكالى في خضم من عفاء
ومباعد الأم الحزينة عن رياحين العزاء
ومجلجلاً بوشاحه البشع الصبيحة والمساء
ومدمراً بيد الجريمة كل حصن للرجاء
يا أم عمرك كله وقف على مجد العطاء
سيان عندك إن سهرت على ابتسام أو بكاء
يا أم يا قمم العطاء يا أم يا أوج الفداء
يا طفلها قد كنت شمعتها بوحدتها تضاء
ما زلت طفلاً في ذراعيها تَهدْهد بالحداء
قد كنت طفلاً بالبراءة والطهارة والصفاء

ونزعت منّا مثلما نزع الشهاب من السماء
لا للبزوغ ولا الرجوع ولا الطموح ولا الضياء
بل للحريق وللضياع وللدمار وللفناء
لم تلق من دنياك إلاّ ما يلاقي الأشقياء
عَنَتٌ وحرمان وعدوان على حق البقاء
وتنازعتك مباغض بلهاء لعبة أدعياء
وذكاء داءٍ يَحْذِقُ السرطان تسخير الذكاء
فطغى ذكاء الداء واستشرى على عمق الدواء

***

في رثاء طاغية وكل طاغية

أدعوك ماذا؟: بالرئيس أم الزعيم أم المشير؟
شبك من الألقاب خفتُ على اللسان من العثور
حملتها مبهوظ ظهر غير مبهوظ الضمير
إني رحمتك من عظيم اللفظ في المعنى الصغير
ورحمت نفسي أن أهين الشعر في نخل القشور
وجزعت إن قصرت عن شأو الفرزدق أو جرير

***

إزأز بنا... شتان بين الهر والأسد الهصور
إزأز فما يخفى على السمع المواء من الزئير
عربد على الحرية الغرّاء تشرق في الصدور
ويلوح زاهِر وجهها ويلف آفاقا بنور
قل: ما انقلابك ؟ أيُّ أمر جدّ فيه من الأمور
الملح ملحك لم يزل ترباً وخبزك من شعير

أجلدت فرانين لا شلّت يد البطل المغير
وشنقت للإرهاب محكومين من دهر دهير[1]
إن يجدروا أن يشنقوا فلأنت أجدر من جدير
أموزع الأرض الفسيحة لم توزع غير زور
هل أحرز الفلاح إلاّ أرض عقلك أرض بور
أو شمّ جيشك منك غير نفخ من غرور
او نام عمال – وما أقبلت تفرش من حرير
إلاّ على شوك البطالة والتدهور في الأجور؟
زعموك سيد نهضة فكشفت عن عبد أجير
عبدٍ لدولار يتله من أنفه تل البعير
أدولار لم يبذلك من بذلوك عن كرم وخير
عوض خسيس أنت مبذول عن العوض الخطير
أهجوك لا مَدْحَ السترليني فقبحاً للنظير
وأخو الفرنك إذا كثرت فما كثيرك بالكثير
تالله لو طبعوك من ورق ومن ذهب نضير
ما كنت إلاّ من دم المحروم أو دمع الفقير

---

(١) رغبة من حسني الزعيم في نشر مناخ من الهيبة في الحياة العامة السورية، لم يجد أمامه أفضل من تنفيذ حكم الإعدام، شنقاً حتى الموت، في / ١٤/ مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام لإرتكابهم جرائم قتل بشعة بحق مواطنين أبرياء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرئيس شكري القوتلي الذي عزله الزعيم كان متردداً في التوقيع على مراسم تنفيذ الإعدامات، لرقة مشاعره، فجاء تنفيذ حكم الإعدام بالمجرمين في دمشق وفي محافظات سورية أخرى وفي يوم واحد، مفاجأة مذهلة للسوريين الذين شعروا أن الدولة جادة في استرداد هيبتها. (هاني)

ما كنت إلاّ ظفر الإستعمار ينشب في النحور
أو في عروق الأرض من وطن وجيع مستجير
ظمأ إلى البترول ينفجر انفجار دم غزير
ويعبه المستعمرون وجوفهم جوف البحور
ويقلبهم ظمأ الذي يُشوى على حرّ الهجير

***

أحياة حبس في سجونك أم نزول في القبور؟
قد كان قبلك من طغوا هلاّ سألت عن المصير؟
جدوا وأسرع سيرهم لكن إلى شوط قصير
الشعب مدَّ لهم إلى يوم عبوس قمطرير
حتى تناولهم بكفٍ تلك كف من قدير
ذهبوا كأنفه ما يولي القش في الريح الدبور
وأنام سافلَ ذكرهم وخلاً على نعل العصور

***

أهتف بسوريا هتافاً ضجّ من ألم الشعور
ما كان مثلك يا أبِيَّةُ من يقيم على النكير
ويطيق دوس الشعب والتنكيل بالفكر الأسير
يا أم ثورات أطاحت أمس بالنير السعير(1)

***

---

(1) كتب الشاعر هذه القصيدة في عهد حسني الزعيم في سورية سنة ١٩٤٩.

بعد هزيمة ١٩٦٧ (١)

نظم الأمين هذه القصيدة وهو في ذروة الألم النفسي، شأنه شأن بدوي الجبل في قصيدته الشهيرة وعنوانها: «من وحي الهزيمة» في مئة وثلاثة وستين بيتاً، ونزار قباني في قصيدته الطويلة وعنوانها: «هوامش على دفتر النكسة». وجاءت هذه القصيدة من عبد المطلب كردة فعل غاضبة على هول هزيمة الخامس من حزيران.. ولكن أبطال حرب تشرين التحريرية من أفراد قواتنا المسلحة السورية، بقيادة القائد الخالد حافظ الأسد، ردوا على الهزيمة بنصر تشرين العظيم في العام ١٩٧٣م. (هاني)

نَمْ وانسَ جُلّقَ واندب حظ من هانوا ... على الأرائك أطفال وغلمان
على الحدود تلاميذ ومدرسة ... وفي السرايات ضباط وأركان
مع العدو رعاديد وأقفية ... مع الرفاق منافيخ وشجعان

(١) قصيدة ساخرة يعارض الشاعر بها قصيدة أحمد شوقي الشهيرة التي مطلعها:
قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم أحداث وأزمان

مع الجواسيس تطنيش ومغيبة وفي المباحث تعذيب وإمعان
تضاءلت قيم التاريخ فانتفخت فيه الزقاق وشاه الحور والبان
مررت في معرض التاريخ أسأله هل للعروبة في البازار دكان
ما نحن في معرض التاريخ: أقفية أم أننا قيم نسمو وإنسان؟
هل نحن عربدة تطفو كما زبد أم أننا في يد التاريخ برهان؟
هل نحن معوله الهدّام أم يده منارة فيداه اليوم بركان؟
قم سائل الأكمه التاريخ: هل عبرت مع الحضارة في مثواه عربان؟
هل عشعش القمل في أفيائه وحبا حتى تضايق أهل، ثم جيران؟
تَبَالَهَ القزِم التاريخ وانفجرت شفاهه عن نوايا هن عدوان



لولا دمشق لما طارت قنيطر ولا ازدرى ببني القفقاس دايان
كل الشهور وصمناها بمأثرة وكان آخر من قاسى حزيران
وقبله كان آذار وثورته وجاء من بَعْدُ تشرين ونيسان
أما شباط فلم نترك به رمقاً للثائرين فللثوار أحزان
وكان يوليو: وحدّث دونما حرج عن الشقيق ليونيو نحن أخوان
وأشْهُر الهجرة الغرّاء رصّعها من الأشقاء بالثورات رَمَضَان

وارحل لسيناء واسأل في متاهتها عن المشير وقد وارته أكفان
من تاه فيها: أموسى في جماعته أم جيشه اللجب حفيان وعريان ؟
موشي يرد لفرعون هديته مع الفوائد فالدَّيان دايان
سل الحشيش سل الأفيون إن فرغت حقائب، ففم التاريخ ملآن
ملآن باللعنات السود يبصقها في وجه من غدروا عمداً ومن خانوا[1]

***

(١) انظر ملحق الكتاب الهامش رقم (٢).

بور سعيد [1]

للذائدين ببور سعيد
سجد اللظى وعنا الحديد
واستسلم القدر العنيد
لما يريد ولا يريد
واستروح التاريخ عطر دمائهم يبغي المزيد
عطر هنا وهناك ما فاحت به جيف الغزاة
نتن يلوث بالصديد وبالقذى زبد القناة
وحقارة الإنسان يزكم أنفها نتن الصديد.
للباذلين ببور سعيد
سمع العلا وفم الخلود
ويد من الإبداع تكتب سفر شعب من جديد

(١) نُظمت بعد العدوان الثلاثي على بور سعيد سنة ١٩٥٦.

صفحاته وهج الفدا ومداده عطر الشهيد
شعب تحرّر من أساطير الملوك الداعرين
وضراوة الإقطاع ترتع في ظلال الحاكمين
ومركب النقص المجسّم في صدى ماض مجيد
الآن عادت أرض مصر لشعبها إرث الجدود
للكادح الفلاح أضرع نيلها ودم الشهيد
لا للدخيل ولا العميل ولا الصنائع والعبيد
من جفني المقروح من آهات قلبي الدامية
من دفقة الإعصار تصرخ في لظى أعصابيه
سأصوغ ملحمة الأباة الصابرين ببور سعيد
في كل بيت رجعة صمّاء من نزف الوريد
ولكل ثاكلة تناغم مصرع الثاوي الوحيد
في هذه الأبيات أصداء تجدد أو تعيد
أنا عشتها في بور سعيد حقائقاً فوق الخيال
كانت يدي فوق الزناد وكان صدري في القتال
يستقبل النيران هوجاء المقاصد والحدود
قد عشت في حمى النضال كأي فرد في الصعيد
أو في فم الدلتا الملثّم بالإباء وبالصمود
أو في صحارى التيه مقبرة الصعاليك العبيد

أمي هناك مع الثواكل والأرامل باكية
ورأيت بيتي يستحيل إلى طلول بالية
وسمعت أخوتي الصغار يحشرجون ببور سعيد
هذا أخي سملوا بعينيه شآبيب الضياء
ليمتعوا بهما اللصوص الغادرين الأدنياء
ويروا بعينيه الظلام على مآقيه يسود
قد عشت أعصاباً تزمجر باللهيب وبالحمم
قد عشت آمالاً تنضرها تباريح الألم
قد عشت في صخب الدماء أقضها سجن الوريد
شعبي الذي صهرته تجربة الفدا صهر الحديد
فوقته شائبة التخاذل والتوكل والقعود
وضلالة النوم العميق على كرامات الجدود
شعبي الذي عادت رسالته فداء خيّرا
يستلهم التاريخ لا يجترّه فلقد صحا وتحرّرا
يبني شوامخه الجديدة فوق لبنة بور سعيد

***

غسان كنفاني

كلـــمات لا تجـــدي

إن ثـــارت أو خُنقـــت

كلـــمات في كبـــدي

في عقـــلي في جســـدي

في وهمـــي أو بـــين يـــدي

كلـــمات لا تجـــدي

قـــد كنـــت الكلمـــة

الكل الكل الكلمة

كالبرعم والصلد

كالصخر وكالورد

لا بدء بلا كلمة

لا شيء بلا كلمة

لا مجد بلا كلمة

لكن الكلمة...

من فمك المفصول عن الرأس

من صدرك هذا الراسي

هذا المفتوح على عكا

هذا المعشوشب بالحب

بالنار وبالحقد

شيء يخرس كل الناس

لن أحكي عن صور (الغدر)

تلك أقاصيص العصفور عن النسر

فالغادر من قص جناحيه عن عَمْدِ

ليبيع حماهُ للغاصب والوغد

ويعير جناحيه للصدفة و (القدر)

كيما يترك (عذراً) للغدر

غسان، ولا بدَّ لأحلام الدمعة

من أن تجتاح حماك الجبارا

من أجل الأطفال ومن أجل الأم

أوليسوا (غسانين) صغارا

وغداً... (غسانون) كبارا

من نطفة هذا الإنسان الملهم

المازج حِبْر الكلمة بالدم

فَلتَسْمُ الكلمة ولتصبح

- أن كانت لمنار الحق - منارا

***

انقلاب

يا بؤس هذا الإنقلاب وذلّ هذا المنقلب
ماذا تبدل غير توزيع المناصب والرتب
ماذا استجد سوى التذمّر والبطالة والشغب
ما زال يحكم من تجسّس واستغلّ ومن نهب
إن يقطعوا ذنباً من الأفعى فقد ولوا ذنب
والرأس يحكم وحده متخفياً خلف الحجب
حجباً من الدولار أو من نسج صاحبه الذهب
لم يحظ من قلبوا بعشر من زراية من قلب

***

الحالم الكبير

كان أكتوبر شهراً كالشهور في فم التقويم أو بطن العصور
كان أياماً أسابيع قصار للندامى وطوالاً للأسير
كان آلاماً بسيبيريا تفور وببطرسبورغ عهراً في القصور
كان شهراً عابراً مثل الشهور تنطفي رؤياه في عمر الزهور
كان للجائع في طول الدهور عاثر الخطوة مكفوف الضمير
كان للسيد نعمى وغرور وتباريح وشكوى للأجير
كان للنخبة أفياء حرير ولكل الشعب كأساً من سعير
كان للعافين غيباً حافلاً بالسـراب السمح والحلم الكبير

***

وأطلّ الحالم الفذ الكبير جوهر الدنيا وإكسير العصور
وعصا السحر التي في يده لم تكن وهماً ولا نفخ غرور

فإذا اللحن النشاز المجتبى انسجام وصداح وهدير
جاء لينين ومن جاء به إنه جاء كما يسعى الغدير
للفيافي للصحارى للربى للغد الظمآن للماضي السعير
للغد المعطاء آفاق ضحى هادر البسمة مزهو العبير
من أفاض النور من وحل الدجى من رعى البذرة واجتث الجذور
إنه الشعب الذي جسّده وجه لينين كفاحاً ومصير

***

فإذا أكتوبر لا كالشهور زلزل التاريخ وارتجّ السرير
مادت الدنيا بعينَيْ واجف حطّم القمقم وانساب العبير
ترقب الدنيا بعينَيْ واجف أمل الدنيا على مرّ العصور

***

صعق المجهول من عاصفة وانجلى الغيب وقامت من قبور
بعثت كل الأغاني والمنى فتّحت كل الأقاحي والزهور
ودموع الجائعين انهمرت كهرباء تغمر الدنيا بنور
ودماء الثائرين ارتسمت نجمة حمراء في أوج الأثير
جثث القتلى وقد مرّت بها ريح أكتوبر فيض من عطور

رفع الشعب لأعلى سدة
أنزل العجل عن النعش السرير
سَكَبَ التاريخ في قالبه
حوَّل الصخر وساداً من حرير
حوَّل الأشلاء عرقاً نابضاً،
والدمارُ الوحش قد عاد قصور
عرقُ الشعبِ، ولم يذهب سدى
كدم الشعب، لقد عاد هدير

***

فإذا بسيبيريا جنان ثرّة
وهج العلم تحدّى الزمهرير
وإذا المنفى ملاذ وحمى
وبيوت الموت قد عادت قصور
وهج العلم وقد عاد لظى
يحرق الرجعة يبني للعصور
ركع التاريخ في كعبته
إنما التاريخ للعلم أجير
وخطى لينين في محرابه
ترسم الحتم وتقرير المصير
لا انتهاز لا ارتجال لا رؤى
لا غباء لا ارتداد لا غرور
وهج العلم الذي شعّ به
وجه لينين بنعمى وحبور
جاوز الأرض وآفاقَ الدنى
دغدغ الكون، تناهى في المسير
صبح غاغارين مذ راد الدجى
فيه من لينين آفاق ونور

***

أيهذا الحالم الفذ الكبير
أيهذا المالئ الدنيا عبير
أيها الشعب الذي أنبته
تنبت الدوحة من خير البذور

تزهر الدوحة في أسخى ثَرَى   تغدق البذرة في تربة نور

أيها الشعب الذي أرفدنا   بالسلاحين، فَنَار ونمير

واليد السمحاء قلب ناطق   ووفاء وعطاء وضمير

لا عقوق وحماس كاذب   باهت الصورة ملجوم الزئير

جلّ أكتوبر عن هذا وذا   إنه التاريخ في بعض سطور

وسطور كتبتها ثورة   هي في التاريخ أوداج مصير

للدنى، كل الدنى، أنشودة   والورى، كل البرايا، تستعير

في مدى آفاقها أسلوبها   لترد الحق في الدرب القصير

للنصاب الحق، للحق الذي   غاله المستعمر الفظ الحقير

عاش اكتوبر نعمى وندى   عاش اكتوبر حمى وسعير

❋❋❋

رثاء والده

أغِيضَ بياني وجفّ الفم ... وحمحمَ في طرسه الأرقمُ
وعضّ اللجام وجن الجواد ... وقد يحرز السبق من يلجم
أيقنع من حبره زينة ... وقد كان أدنى حلاه الدم
ويرضى من الشعر نظم الكلام ... وما يقطر القلب لا ينظم
ويسألني الناس أنت العيي ... أما ينطق الخطب أو يلهم؟

❊❊❊

لقد قبع الجرح في صمت ... فلا الشعر يقوى ولا البلسم
وصمت الجراح كصمت القبور ... رهيب الكآبات لا يرحم
وقفتُ على القبر وا لوعتي ... فقلبي جراح وجرحي فم
وقد حفّ بالخافق الصامتان ... فهذا عيي وذا أعجم
وأنجدني الدمع وا رحمتا ... لسمح رحيم ولا يُرحم
ولا عجب فهو سبط الجراح ... تعالى الجراح وجلّ الدم

❊❊❊

سأسأل عنك انتفاض الربيع ربيع حياتك لا يهرم
وذكراكَ مثل انبعاث الأريج يجدّد أزهاره البرعم
أكذّب فيك افتراء النعي بما يدّعيه أو يزعم
فطود من المثل الساميات أشادته كفّاك لا يهدم
وعقد من الدرر الغاليات قلادته أنت لا يفصم
لقد خسئ الموت فيما ادعى فحصن الرسالات لا يقحم
وأهل الرسالات فوق الخلود فمعنى الخلود استقى منهم
فلم يطو سقراط سم الكؤوس ولا نال من حيدر المجرم
ولا أطفأت من شعاع الحسين سيوف من البغي تستلهم

***

أمولاي حسبي انتساباً إليك بأني معانيك أستلهم
وحسبي من الهدي هذا الشعاع يوشّح بالنور ما أرسم
لئن كنت منك امتداد الظلال فما حجبت ظلها الأنجم
أبانا وكم من شقيق لنا شريك الحنان ولا نعلم
فقد وسعت نفسك الخافقين نفوس الورى حولها حوّم
وموطنك الخير أنّى سرى وأهلوه أهلوك إن ينتموا

***

ولم يترك الخير في جانحيك مكاناً يراود أو يقحم
وكم راودت نفسَكَ المغريات فجنّ الإباء وثار الدم
وطافت تهاويل من حيدر تهاويل من عصمة تعصم
وقهر النفوس سبيل الجهاد ومن ينصـر الله لا يُهزم
وزان الإباء حياة الكفاف فلا الجاه يغري ولا الدرهم
وجابهت بالصبر شحّ الحياة فكافأك الأرحم الأكرم
فغبرت في موكب السابقين وخلفت في الدرب صرعاهم
فإرثك فينا كإرث النبي يباهي به الجاحد المسلم
كتابك هذا الخدين الوفي وبتّارك الفاتك المعلم
وإنّا بميراثك الأغنياء إذا أملق الناس أو أعدموا

***

رثاء والدته

عقوقي يا أمّاه مثقل أوزاري
وملزمني صمتي وملبسني عاري

عقوقي لا أف الجحود ولا القلى
فلم أثلم القربى ولم أغضب الباري

وكان رضاك السمح أنس ألو حشتي
وغوثاً لتحناني وزاداً لأسفاري

خلعت عليّ الحب آلاء رحمة
سماحة محروم وآيات إيثار

عقوقي: أن لا أنسج الحزن والأسى
مطارفَ تزهو في شآبيب أشعاري

عقوقي: أن لا أجعل الدمع نغمةً
ترددها الدنيا سلافة أو تار

عقوقي: أن العي شل قريحتي
فشد على نايي ولعثم قيثاري

وحوّل آلامي ركاماً صديئة
وقد كنّ في الجلى لوافح إعصار

أقبرك أم قلبي بروداً ووحشة
لأنت على الرمسين دفقة أنوار

لقد آثرت دنيا التراب بدفئها
وخلفت الشلو الطعين بلا نار

جراحك في صدري وآهك في فمي ومحنتك الجلّى مغاليق أسراري
وشائجنا يا أم شتى وإننا قريبان في النجوى بعيدان في الدار
بكيتك يا أمي بعبرة ثاكل فغطّى على الأشعار مدمعي الجاري
ويخسأ شعري فيك إن حطّ قدره فلم يك ذوباً للدموع بمدرار
على حافة التسعين إشراق مبسم ودقة إدراك وروعة إصرار
وبعد عن الدنيا وقربى لأهلها وشوق إلى الأخرى بإيمان أنصار
إذا ذكر الإيمانُ كنتِ منارة يفيءُ لظليها المجوّع والعاري
ليهنك يا أم البنين بأننا كما غرست كفاك نبتة أطهار
نجلُّ عن الزلفى ونسمو عن الخنا ونشمخ للعاتين شمخةَ جبّار
ونصفح صفحَ القادرين سماحة ونُجزّى عن الحسنى جزاء سنمار
ونغضي على عار اللئام ترفّعاً فما طهر الأرجاس رفعة أقمار
تراث أبينا لم يزل مترفاً بنا يطلّ على العلياء إطلال بتّار
سيوف «علي» فيه بارقة اللظى تردّ على الباغين مصرع عمّار
وصوت (أبي ذر) يجلجل صارخاً يثير على الطغيان موجات إعصار
يقول أيرضى الجائعون بجوعهم ولا ينهل المتخوم من سيف ثوّار
وصوت (بلال) بالشهادة عابقاً يطوف على الدنيا بأنفاس معطار

(وحجر عدي) وهو يلفظ نفسه ويستبق الشكل المرير بإصرار
هم الشيعة الأبرار لا زهو خانع ولا عته مغرور ولا لغو ثرثار
سماحك يا أُمّاه أن ندّ عن فمي سوى اسمك الحلو النزيه عن العار
فإن حديثي عن شريكك سيدي ومولاي في الدنيا وحصني من النار
هو (المحسن) السمح الكريم على العدى فكيف على القربى فكيف على الجار

***

رثاء شقيقته

ما ألام العيش يجفونا ونهواه على عواتقنا تلقي خطاياه
سود لذائذه حمر نواجذه قريبة كأمانينا مَنَايَاهُ
تضاءلت قيم الدنيا بصفحته فليس يكتب إلاَّ ما تخطّاه
وليس يحكي سوى ظل الصدى وإذا يمنن فالتاريخ مأواه
شربت عمري الذي ضن الزمان به بما يجود به أو ما تحاماه
عمران: ذا عُمُر تأسى بصحبته وذلك المتمنى ما فقدناه[1]
راض الفلاسفُ بطنَ الغيب عن سفه فقهقه الغيب يستعدي خفاياه
وقال ما أتفه الإنسان يسخر بي ومن ورائي عدل الموت والله
ومن ورائي قبر موحش وصدى يكاد يملأ بالأشباح نعماه
الغيب نحن إماء في مجاهله والغيب أرحم نخَّاس عرفناه
لولا مجاهله الغناء ما صبرت على الأسى وعلى التبريح دنياه

❊❊❊

(١) ما فقدناه: الذي فقدناه.

أختاه يا بضعة من «محسن» غربت ... ما أعذب الجرس لما قلت أختاه
ذكرت زينب إذ نادى الحسين وفي ... أذن الزمان نشيج من رزاياه
ذكرت زينب تأساً وتعزية ... وعمتي زينب والسبط جداه
نحن الذين نذرنا للفدى دمنا ... وفي الأضاحي لم يبخل وريداه
منا (علي) إمام الحق من دمه ... ورد الفلاح، ومنّا الصيد ابناه
وفي الطفوف لنا جود على ظمأ ... وغاية الجود ما يحبوه ظمآه
وإن نُدل فبالتاريخ نملؤه ... فخراً، وتضحية كنّا ملأناه
أختاه يا دمعة حرّى تضنّ بها ... عين الزمان فما يبتلُّ خدّاه
طويت عمرك بالآلام صابرة ... ورحمة الموت جور في ضحاياه
لا بورك الموت في مزعوم رحمته ... وبورك الألم الحاني ونجواه

***

أبا علي وفيما بيننا رحم ... من الوداد رسيخات زواياه
قرابة الدم ما أوهى وشائجها ... إن لم يهبها الوداد السمح معناه
بيني وبينك ود لا انفصام له ... موطد في حنايا الصدر مبناه
ما صفق القلب في نعمى وفي شجن ... إذا تلكأ عن يسراه يمناه

***

رثاء قريب

أبكل يومٍ طعنة وجراح وبكل بيت للردى أفراحُ
بالأمس شيعت المروءةُ محسناً ولها على الحسن الزكي نواح
واليوم للمهدي العلي مآتم ثكل الحمى فيها وضجّ الساح
تلك البقية من ذؤابة هاشم أدنى سجاياها ندى وسماح
تلك العمائم كالربيع نضارة تخضـرّ منها أربع وبطاح
عطر النبوة في شذا طيّاتها ودم الحسين عبيرها الفوّاح
ومن الوصي وحاليات بيانه وسنا شمائله لهنّ وشاح
الخير معدنها ورائد خطوها ومدير دفّتها هدى وصلاح
ما حاد عن سنن الهدى قدم لها كلا ولا مسّت حراماً راح
الخيّرون المصلحون هم إذا عزّ الكرام وأملق الإصلاح

والواهبون النيّرون هم إذا ... شحّ الزمان وأبطأ الإصباح
كانوا مصابيح الدجى في أمة ... طالت لياليها وغاب صباح
في الدين والدنيا لنا أمثولة ... تُحذى ومنّا في الدجى مصباح
ما غاب عن ليل الورى قمر لنا ... إلا ليطلع مشرق وضّاح
تأبى المروءة مذ رضعنا ثديها ... إلاّ لنا أن يستلين جماح
والخير إنّا أهله وحماته ... وله علينا خفقة وجناح
للناس للبسطاء للمستضعفين ... على البغاة لنا قنا ورماح
الحق لو فرشوا الدروب بهامهم ... لن تنثني عن بذلها الأرواح
حتى يسود ويستقر وتنمحي ... من دربه الأوثان والأشباح
يا عابد الأوثان آن لجاحد ... أن يستبين الحق فهو صراح
من يوم إن دك النبي بمكة ... أوثانهم كلبت بهم أطماح
صنم من الحجر الأصم وآخر ... سيماؤه التغرير والإصلاح
ماذا يميزها فذلك أعجم ... وشعار هذا الجهر والإفصاح
وكلاهما صنم يغرر عابداً ... ما في عبادته هدى وفلاح
الشعب أصبح كالإماء تبيعهُ ... لمزايدين نخاسة ووقاح
عشرين عاماً أو تزيد ونيرهم ... في عنقنا والمنكرات تباح

ماذا جنى الوطن الذبيح بعهدهم — فالجوع جوع والجراح جراح

حكموا وما عدلوا وداسوا حقّنا — فالأُسد تُلجم والعرين يُباح

يا شعب عامل إننا في دجنة — وبكف كل منكم مفتاح

أنتم إرادتكم أصالة رايكم — لمصيرنا فيها هدى ورجاح

أن يبذلوا المال الحرام لبيعكم — وشرائكم فلكم طغوا وأباحوا

الشعب أسمى أن يُباع ويُشترى — وأجلّ من أن يُزدرى ويُباح

***

رثاء الدموع

مهج مرن على الأسى وعلى الصدا ... قم عزّ فاطمة وعزّ محمدا
قم عزّ هاشم والحسين وزينباً ... وعلي بالحسن الزكي وبالندى
ذِكْرُ الفواطم يوم غبتَ، بكربلا ... جثمان جدّك بالعراء موسّدا
فبكين واستعبرن هذي سنّة ... قد شاءها التاريخ أن تتجددا
يقضي الحسين بكل عصر ظامئا ... ويزيد يحكم في الرقاب مسوّدا
ولكل عصر ثورة وضحية ... ومجازر فيها حسين استشهدا
عماه يا قمر الندي وإنسه ... قد أظلم النادي وبدرك ما بدا
ذاك الحديث العذب تهزأ بالطلى ... كاساته أو بالمزار مغرّدا
وجدي عليك كفيض علمك زاخر ... هتان دمعي فيك ما سمع الندا
خلّ الدموع وشأنها كم دمعة ... حلّت إسار القلب مما قيّدا
جمعت فأوعت فالبلاغة نفحة ... من فيضها والشعر منها أرفدا
لا تنكروا في الدمع غصّة شاعر ... كم شاعر سكب الدموع تمرّداً

لهفي على الخلق الوديع وحكمة الشاعرية من معازفها صدى
وشمائل هي والربيع توائم سكر الشذا من عرفها وندى الندى
هي في شفاهك حكمة علوية وعلى لسانك رحمة تسع الهدى
الشعر بعض أقاحها وورودها والعلم ينهل من علاها الموردا
صور من المثل العلية كنتها بخل الزمان بمن بهن تفرّدا
ومضت حياتك كالشعاع نقاوة وكخفقة الشفق الندي تورّدا
وكبسمة العذراء طهراً نيّراً وكشدوة الحادي المجلجل إذ شدا
نسج العفاف برودها فبدت لنا بيضاء ما مسّ الخبيث بها الردا
وسما الإباء بها إلى كنف السما فعلا النجوم بها وجاز الفرقدا



ورضيت بالحرمان لم تسلك إلى سبل الدنية غاية أو مقصدا
عرش الكرامة ما رضيت بغيره عرشاً فكنت به المليك السيدا
قل للأولى باعوا بأرخص ما اقتنوا ثوب الكرامة واستكانوا للعدى
ما كان أحوجهم وهم في غيّهم لشعاع روحك ناقداً ومفنّدا
عماه طال بنا السرى في مهمه ثمل الضلال به فجنّ وعربدا
دنيا على الخب اللئيم رحيبة وعلى الكريم السمح ضاق بها المدى
الري والشبع الحرام لمتخم ولمهجة العافي المجاعة والصدا
عمّاه لو ملك المحب لك الفدا هان الفداء له وعزّ المفتدى



رثاء صديق

جراحك في صدري ونزفك من دمي ومأتمك الغالي المضمّخ مأتمي
فبيتك بيتي والمرارة والأسى وشائج من قربى أواصر من دم
وقلبك قلبي قد تفجّر بالأسى فينزف من عرقي وينزف من فمي
تلوذ بي الآلام هوجاء شرعاً كما لاذ إعصار الشتاء ببرعم
وتنهشني الأفعى فأبسم ضاحكاً فقد خالط السم الجنوني مبسمي
وطفلك طفلي يصعق اليتم قلبه وبيتك بيتي قد أُحيل لميتم
سبقت إلى دفء التراب بقيتي فيا طول شوقي للحاق المحتّم
ويا طول ما قد عذب القلب برده فعاد إلى ظل الصواعق يحتمي
وأنكر في عهر الحياة عقوقه فعاد بأحضان المنية يرتمي
لدفء الردى أحلى مذاقاً ومشرباً على النفس من لؤم الحياة المصمّم

تضاءلت الدنيا بعيني فوَصْلُها
جفاء وأعراس التفاهة مأتمي

بكيت على أمسي المضمّخ بالشذا
ولاقيت يومي عاصب العين كالعمي

وسدّ الأسى دربي فلا الشوق حافز
بنابيه كي يغري الحياة بمنعم

ولا الورد مرموق البلاهة والشذا
ليعصمني من وهج إثم محرّم

مصيري مصير الجيل لست بمفرد
ولا أنا باللحن النشاز بمغرم

أفقنا على دنيا الضياع فصَادقٌ
وآخر ملجوم الصراحة والفم

أرى وطني نهب التفاهة والخنا
وأسْجَنُ في جسمي وألجَم في فمي

أثور كما الرقطاء تلدغ نفسها
فأمضغ أحشائي وألعق من دمي

وأجرع من كأسي سموم بلاهتي
وغيب خيالاتي وسخف توهّمي

وأنكأ جرحي عامداً متلهّفاً
لنبع جراحات وشلّال عندم

أدلل جرحي كالحبيب أصونه
وأخشى عليه من ضلالات بلسم

جراحي جراح الكون ماجفّ ضرعها
ومأساتي الكبرى كمأساة آدم

يضيق بجنّات الخلود خياله
ويقصر حتى الإثم عن حلمه الظمي

أيوؤدُ ورد الشعر حصدُ سنابل
ومنجلها سيف القضاء المثلم

أترثي صباحاً ثم تُرثى عشية
كأنك نسر من نسور محرمَ[1]

فهذا علي في دماء مكرَّم
وهذا حسين في بلاغة مكرم

واني وإياك الشهيدان بيننا
سحابة يوم أو غلالة مأتم

---

(١) يشير بذلك إلى أن المرثي بهذه القصيدة كان قد رثى صديقاً له صباحاً ثم توفي مساءً.

ألحّ عليك الظل حتى تبعته وما زال ظلي ممعنا بترسّم
سأهرب منه للحياة أصدّه وأمعن في تقليصه وتجسّمي
سأهرب من ظلي من اليأس لاجئاً إلى الحب في نعمى ذراعيه أرتمي
لقد أبصرت عيناي نفسي مذابة دماء ويأساً يمزج اليأس بالدم
فما راعني أني أذوب وأنتهي لو أن جراحي سوف تنزف من دمي
وأؤمن بالإنسان قدرة خالق وتجسيد إبداع ورمز تقدّم
وثورة مسحوق وعزّة ثائر وسحقة متخوم بأقدام معدم
إليك شهيد الشعر بسمة واثق من الغد ما عبس بدون تبسّم
سنحيا سنحيا في عميق قبورنا كنازح تبر من غياهب منجم
وأن لنا الإشعاع والنور والهدى وأن لهم منهم غياهب معدم

***

دمعة

يا قلب أين الدمعة الحمراء نطق البلا ولحونها خرساء
روت بطاح الأمس من رحماتها وزهت بها أوراده السوداء
موسى وديعة دمعة من أمه اليتم يعرفها ولا الأنواء
ويسوع والرحمات ظل صليبه جادت به من دمعها العذراء
وعلى تراتيل اليتيم المصطفى من دمع آمنة سنى ورواء
دنيا الدموع وأين من عليائها في العبقرية بسمة بلهاء
يا دمعتي خذل الهوى قيثارتي أفيخذل اللحن الجريح عزاء
مرّي على القلب الحبيب فطهّري ما دنّست من قدسه النعماء

***

رثاء شهيد

فداء لنعلكَ يا ابن الفداء ... خنوع الرؤوس وذلّ الرياء
فداء لما فيك من شامخات ... صغار الظلام وعهر الضياء
فداء لما فيك من غاليات ... سماح الضلال وجود البغاء
فداء لنعلك هذي الرؤوس ... رؤوس الأفاعي شفاه الدماء
رؤوس الخنوع أمام الطغاة ... سفاه الظماء لعب الدماء
أجلّ فداءك عن ذي الدمى ... فمنه استعير شموخ السماء
نجيعك هذا النبي الفريد ... نذير الدمار أمام البناء
فناء لمستقبل زاهر ... دمار لمهترئ المومياء
نجيعك هذا الحسين الجديد ... ففي كل يوم لنا كربلاء
وفي كل يوم لنا كربلاء ... وفي كل يوم كربلاء
نجيعك هذا العلي البليغ ... فنهج البلاغة نهى الإباء

لنا الشعر هذا العطاء السخي — ولكنه في ركاب الفداء
أيا ابن الفداء وعزّ الفداء — تعالى الشموخ وجلّ العطاء
أيا ابن الفقير وأنت الغني — تهاوى على نعله الأغنياء
ويا شامخاً في مهاوي الصغار — ويا شاعراً في حقار العواء
ويا عاكفاً عن مهاوي الضلال — ويا رائداً في دروب البقاء
لأنت من الشعب إكسيره — وما الشعب إلا الصدا والنداء
وما الشعب إلا شفاه الحنان — ببسمتها النور والكبرياء

***

رثاء صديق سبقني للقبر

يا ثاوياً تحت الثرى يتبسم ... ومشرّداً فوق الثرى يتألم
عصفت بك الآلام وهي رحيمة ... بالتائهين وعطف ربك أرحم
كنت الصديق وكنت أحلى بسمة ... في الثغر يرسمها عليه تألّمٌ
كنت الرفيق على دروب مودة ... وعرت مسالكها وقلّ المغنم
بيني وبينك ألف ألف وشيجة ... لا الموت يقطعها ولا هو يقصم
وسبقتني للقبر أنت المبتدا ... وأنا لك الخبر الذي يترسّم
دفء القبور وبردها وسكونها ... أندى على القلب الوجيع وأنعم
والدود أرحم من كريه وجوههم ... يتأكل الأمل الندي ويقضم
إن جفّ شريان بقلبك منهك ... فأنا الجفاف وما يجين الموسم
مأساتك الكبرى أعيش فصولها ... أنا ناطق فيها وغيري أبكم
مأساتنا مأساة جيل كامل ... لا رحمة نبغي ولا هو يرحم

***

أأبا فؤاد أين عهد للصبا ريّان موتور البشاشة منعم
تتدفق النعمى على حافاته كالسلسبيل وصمتها يتكلم
كنّا الندامى والكؤوس ودفؤها والخمر ريّا بالندى يتبسّم
كنّا المحبة عطرها وأريجها وسماحها وضلالها تتجسّم
كانت لنا أيام حبّ خيِّر حتى الشقاء بظلّه يتنعّم

***

رثاء قريب

يا وفياً مذ عزّت الأوفياء (وأميناً) وقد مضى الأمناء
وطهوراً والرجس شاب النوايا فإذا صفوة الورى اللؤماء
وإذا العهر والنفاق ذكاء وإذا الطهر والوفاء غباء
وإذا العار في الصدور وسام وذرى الضعف عفة وإباء
وإذا الغارقون في حمأة الوحل سراة أشاوس زعماء
والميامين عزّل ضعفاء والمحاميد قلّة غرباء
والمقاييس منطق مستباح والنواميس خبطة عشواء
أفعاد الإنسان وحش فلاة ؟ غلفته حضارة أشلاء
فيك نبكي الإنسان قلباً نقياً لم تدنّس دماءه الأهواء
فيك تبكي الإنسان رعشة خير شاع من حولها رضا وصفاء
لم تكن (عندهم) لتحسب شيئاً أنت في القلب والحشا أشياء
أنت ذكرى كأحلى وأغلى ما تناجي أمواتها الأحياء
أنت (للمحسن الأمين) صفي بورك المصطفون والأصفياء
بورك الحافظون للود والعهد وباءت بعارها الأدعياء

هان عن مستوى الشنار دعي إن مثواه رحمة وعفاء

***

يا رفيق (الأمين) في غربة الدار لدار تحلّها نعماء
أبلغ الصاحب الأمين نداء مشمخر الصدى فمنه النداء
قل له: الدار بعد نأيك قفر والميامين: في الحمى غرباء
قل له: الناس في غيابك شلو مزقته النواهش الأهواء
قل له: لا تطل فالعين نسر والمقادير جيفة شوهاء
وعيون النسور ليست كفيها ناهشات فعينها عذراء

***

يا أخا الود والوفاء سلام من محب فما وفّاك الرثاء
كنت بالدمعة الطهور جواداً أتوفيك دمعة خرساء؟
نبعها الخافق الصريح المدمى ولغالي ذكراك فيه ثواء
دمعتي دمعة الوفي وفاء نحن في دوحة الوفا شركاء

***

وارد الحوض في رحاب علي كيف تظما وجدّك السقّاء
حبه البرد والسلام ومنه من لظى النار جنة ووقاء
وبقلبي من حبه ومضات هي إن شحّت الدماء دماء

***

تبارك الحب دنيا كان أم دينا

- ذكرى الشيخ أحمد عارف الزين -

أريج ريّاك لا إقفار وادينا ... وري ذكراك لا شحّ الظما فينا
قد يبعث الموت فينا من نضارته ... ظلاً يرفّ على صحراء وادينا
قد يستقي الموت من نبع الحياة وقد ... يروي الدروب ويستندي الرياحينا
وقد يفيض شعاعاً في مسالكنا ... وقد يشعّ رغاباً في مآقينا
آمنت بالموت إيمان الحياة به ... كالتوأمين هما معنى وتكوينا
وجهان للأزل المحجوب ما افترقت ... ملامح لهما إلا لتغرينا
واضيعة العمر وأُذل الحياة إذا ... تجسّدت في منايانا أمانينا

***

أبا أديب وفي ذكراك منتجع ... للساغبين وري للظما فينا
فأنت والخير كالصنوين ما استقيا ... إلاّ الصلاح معيناً والوفا دينا
وأنت في الحب والإخلاص مزرعة ... نحن الغراس ملأناها أفانينا

عرفانك[1] الفذ ما زالت خميرته ... تضوع ما بيننا ورداً ونسرينا
في كل زاوية من عامل أثر ... منه وفي كل بيت هاج عرنينا
كم شنّ حرباعلى الطغيان مارحمت ... وفي صروح الأذى كم دق إسفينا
أقلامنا الغضة العذراء كم وجدت ... لدرء عثراتها فيه ميادينا
وكم حبت فيه أقدام وأخيلة ... ومذ تشب تجافيه وتجفونا
كنّا صغاراً وكان العلم نافذة ... ضنينة النور والنجوى بوادينا
وكان عرفانك المغداق موردنا ... وكان في زحمة الظلماء هادينا
نحن العفاة بنو الآلام من دمنا ... نسقي الحياة لنرويها وتظمينا
من جوعنا الملهم الجبّار تخمتها ... ومن عقوق لياليها مآسينا
من نبعة الألم الفيّاض موردنا ... ومن رياض مآسيه مغانينا
صحائف الأحمق للتاريخ بيضها ... ما بعثرته على الدنيا أيادينا
عشنا مع الألم الوهّاب يلهمنا ... معنى الحياة ويصفّينا ويهدينا
تبارك الألم الفيّاض يلهمنا ... إن نستخف به حتى يدانينا
إنّا بنو الشعر من إخصاب نبعته ... كنّا زرعنا الدنا منه رياحينا
جراحنا الحمر ما تنفك صارخة ... بالتائهين لتهديهم وتهدينا
شعارنا الحبّ في عليا سماحته ... تبارك الحب دنيا كان أم دينا
كأن المسيح بها أضفى معلّمنا ... قربى الجراح تواسينا وتدنينا

---

(١) المقصود هنا مجلة (العرفان) التي أسسها الشيخ زين. (هاني)

والمجدلية ردّ الصفح غربتها إلى القداسة حتى عاد توطينا
من دمع مريم من بلواء محنتها كان المعين لباكينا وشادينا
ومن محمد رفّت في جوانحنا ذكرى اليتيم فمنّا اليتم أو فينا
ودمع آمنة يذكي جوانحنا كدمع مريم ترنيماً وتلحينا
ودمع زينب لا كالدمع سخرية بالنائبات وترسيخاً لماضينا

***

إنّا رعيل علي من رسالته وفي مبادئه تعلو نواصينا
نهج البلاغة دستور لحكمتنا وذو الفقار شعار للإبا فينا
لا نرتضي الظلم إلاّ أن يكون فداً فللفداء وهبنا كل غالينا
فخر الضحية أن يقتات من دمها جوع الفداء فما أسخى أضاحينا

***

أبا أديب وفي الجلى نحنُّ إلى تلك السيوف فقد شحّت مواضينا
تثير ذكراك في أحشائنا ألماً بقدر ما قلّ من أمثالها فينا
تلك الوجوه وراء القبر ما برحت تضيء حاضرنا من وحي ماضينا

***

العارف الله

- ذكرى الشيخ أحمد عارف الزين -

قبر بطوس إلى جنب الرضا وله ... عين الرضا والهدى والحق تبتسم
العارف الله عرفان الوصي له ... ومن له بهدى خطواته أمم
الناصعان: صغيراه وعمته ... والداميان: صراع الحر والقلم
بالأمس أغمد سيف ظل ملتمعاً ... يكافح العسف من ذلوا ومن حكموا
وما جريمة من سيموا ولم يثبوا ... في وجه ظلاّمهم إلاّ كمن ظلموا
أبا أديب لقد جاهدت ما وهنت ... عزيمة لك إذ هانوا لدن عزموا
فأنت أنت حديد لا يلين ولا ... يرقى لعليائه شك ولا تُهم
وأنت أنت كجلمود وصومعة ... من الإباء حماها الله والشمم
وأنت أنت بياض في المشيب وفي ... طيب السريرة إذْ عقوا وإذْ لؤموا
وأنت أنت إمام في الوفاء وفي ... رعاية الود فليخز الألى زعموا
وأنت أنت سماح في اليدين وفي ... شم الطباع سداها الحب والكرم
وأنت أنت من العرفان مقتبس ... تقشع الظلم من جراه والظُلُم
وأنت أنت على السبعين في قمم ... من النصاعة دانت دونها القمم

***

رثاء قريب

من كربلا انطلقت شرارة مجدنا ... وبكربلاء فقيدنا المستشهد
يسعى إلى قبر الحسين وقبله ... يسعى الحسين ورأسه والموعد
بالتضحيات وبالدماء تراثنا ... ومن الشهادة مجدنا والسؤدد
تاريخنا الدامي سجل حافل ... بالمكرمات نعيده ونردد
آل الرسول وحسبنا فخراً به ... أنّا على شرف الشهادة نُحسد
ماذا جنينا غير أن رؤوسنا ... رهن الطغاة: فطائح ومهدد
يا ثاوياً في كربلاء بجنة ... لا يحتويها بلقع أو فَدفَدُ
إن تقض في الصحرا غريباً نائياً ... وعلى الرمال دم يسيل ويُشهد
فلقد مضى بطل الفداء وآله ... ظمآن لا أمل هناك ولا غد
إلاّ رسالات وحق يُفتدى ... بالغاليات وفكرة تتجسد
يزهو بها التاريخ يشمخ رأسه ... ومآثر نبني بها ونشيد
يا ابن العمومة ما تنكّر للوغى ... قلب لنا كلا ولا خانت يد
إنّا على عهد الوفاء قلوبنا ... وتراثنا وكفاحنا المتجدد

***

قصيدة نثر

العائدان...

أيها العائدان، وقد امتصّت دماءهما الصحراء..

أيها العائدان من الغربة العربية، إلى الغربة اللبنانية!..

أيها الهاربان من غربة الحياة إلى طمأنينة الموت !..

لو عدتما، وفي عروقكما دماء الحياة، لامتصتها أرضكما الظامئة للماء والحياة، لا الدماء..

فأرضكما بعد أن رويت بالدماء، قد أُتخمت بالدماء، وضجّت بصرخات الدماء.. وشعبكما.. قد تعمّد بالدماء...

أرضكما .. التي كانت تفاخر بلون الأرجوان، زينة للمترفين والأثرياء.. عادت تفاخر بأرجوان الدماء، زينة وحلى في رقاب الفقراء، وأوسمة على صدور الشهداء..

***

في كل يوم لنا كربلاء..

وفي كل يوم قوافل من الشهداء..

وعندنا ألف (شمر) وألف (ابن سعد) !.. وألف (يزيد) و (ابن زياد)..

باسم (الشريعة) يهرقون الدماء.. ويمتصّون الدماء.. ويعبثون بالدماء..

ويتوالدون، ويتكاثرون كالأفاعي، ويتلونون كالحرباء..

إنهم ليسوا من الغرباء ولا الأعداء

إنهم من الأخوة والأبناء.. وربما الأصدقاء !..

وأما الحسينيون.. فأمامهم ألف كربلاء.. ولكن بلا عويل

ولا بكاء.. ولا تَبجُّحَ ولا استعلاء

وبلا ضجيج، ولا عُواء..

بل .. بثورة حسينية غرّاء، يصبح فيها القاتل هو القتيل..

يُخرّسُ صوت الضحية سكّينَ الجزّار..

***

أيها (الحسينيون)، فوق كل أرض، وتحت كل سماء..

أيها (الكربلائيون)، في كل عصر، ومن كل جنس..

المجد والخلود «للحسين» رمز الفداء،

والعار والشنار للرعاديد والجبناء..

***

رحماك اللهم !..

لقد جفّ الضرع، ومات الزرع وتخلتّ عن الأرض السماء !..

وفرّ سكان الجنان إلى الصحراء..

واستبدلوا نتن البترول بأريج الكوثر..

وأصبح ساقي الحوض الاستعمار،

وَوَاردو الحوض زبانية النار..

وأصبح الفردوس للكفار..

وأصبحت جهنم للأبرار

عفوك اللهم !..

***

أيها العائدون محمولين على الاكتاف، بلا روح وبلا آمال..

وما جدوى الروح بلا آمال؟..

وما قيمة العيش في الأوحال؟ ..

الموت أرأف..

الموت أرحم..

الموت أنظف ! ..

***

أيها العائدان ! ..

لو عدتما إلى وطنكما وفيكما عرق ينبض،

لما وجدتما فيه جفناً يغمض إلاّ على غصّة الجوع والحرمان..

وعلى أرغن الصمت والنسيان..

فعلام تتحمّلون، ونتحمّل، أوزار الحياة،

ووعثاء الحياة، إذا عادت الحياة

أوزاراً ووعثاء، بلا غاية ولا رجاء ؟ !!

***

لا .. فقد خسئوا !. فالحياة إرادة، ووجود

الحياة إيمان وصمود

الحياة وجود، وخلود..

وسوف نعيشها كما يجب أن تعاش

أو نموتها ذوداً عنها، وصوناً لها، كما عشتها

يا حسين، كما متها يا حسين..

***

قال يصف حاله

(١)

هذه المقطوعات الشعرية الأربع من محفوظات الدكتور عمار الجمّال، معاون وزير الاقتصاد السوري سابقاً، وهي مستمدة من ذاكرته، ومسجّلة بصوته على شريط (كاسيت) قديم، ما جعل عملية تفريغ الشريط على الورق صعبة لعدم وضوح بعض الكلمات، لذلك نعتذر من القرّاء الأعزاء إذا لم نوفّق في كتابة بعض الكلمات، كما نظمها الشاعر وأرادها لرداءة التّسجيل وتهدّج الصوت.. والحديث المأثور الشريف يقول: (التمس لأخيك عذراً) وفي رواية أخرى سبعين عذراً..

قد ضقتُ ذرعاً بالعذاب والألم ... ولكمْ تذوقتُ العذوبةَ والنغمْ

حتى العذابَ مللتهُ ماذا ترى ... أبقت حياتي للخلود من العدمْ

مُتَعُ الحياة تملُّ يا ويحَ المنى ... ويحَ، اللذائذِ هل يمرُّ بها الندمْ

ضاعت حياتي عن حياة أختها ... وانجاب عن ليلايَ ليلي المدلهمْ

فبدت وقد عرّى الصباحُ فتونها ... ولكم حقرتُ الحسنَ عُريا يبتسمْ

أهواه مكتئباً تناقض فنهُ ... ونبا وبان فما استراح ولا انسجمْ
أهواه في كبد السماء محلقاً ... وبحمأة الأوحال طُهر يستحمْ
ما حدَّ سِرَ الحسنَ حدٌ لا ... ولا يرقى إلى عليائه سخف النظمْ
أأعود إلى الألم الممد حديثُه ... كالخمر تلقف ريحها أو لا تشم
الخمرُ والألم العميق توأمٌ ... ولا إن نبا عَصَبٌ ولم يجمع رحم
أنا الشقيقين اللذين تباعدا ... أولى وأجدر من أحاط ومن ألَمّ
أما الدِنان فكم سبرت بغورها ... عِمق، السعادةِ لا تحيط بها الكَلِمْ
ونهلتُ من وِرْدِ العذاب أعبُّه ... عبَّ الطلى ونهشتُ منه في نهم
ولقد جمعت على صعيد واحد ... ما خلّف الساقي وما ترك الألم

***

في وصف الكرمة

(٢)

هاتِها من كرمةِ الشرِّ مُداما　　تتلظى في الأباريق ضِراما
يُسكر الدنيا أريجٌ ذاهبٌ　　من دواليها ويستهوي الأناما
قد وعا إبليس إذْ يعصرُها　　سِرّها الأسمى فأولاها الأثاما
باركتْها يده في دنِها　　وأحلَّت من معانيها الحراما
ولظى أنفاسِه طهرَّها　　وحباها منه برداً وسلاما
آدمٌ ذاق على عفته كأسها　　الغاوي وما بلّ الأواما
فإذا الأجيال سكرى بعده　　وإذا أبناؤه الصيد نُدامى
والذي حرَّمها كم تشتهي　　شفتاه اليوم ذياك الحراما

***

بين اليأس والرجاء
(٣)

بين يأسي ورجائي فجوتان   أنا من عمري ومنها في أمان
ما عرفتُ اليأس إلاّ ملجئاً   خانع الضفة مرذولاً مهان
والرجاءُ الحلم كم مدَّ على   مهمه الصحراء خطاً من بيان
فإذا الغيب سبيلٌ ذاهبٌ   وإذا المجهول سهلٌ يستبان
أنا لو آمنت باليأس تُرى   كان في عمري زمان أو مكان

***

تشرين

(٤)

وله هذه الأبيات في حوادث (بشامون)

عندما اعتقلت سلطات الانتداب الفرنسي وزراء الحكومة اللبنانية في تشرين الثاني..

لا كان تشـرين من بين الشهور ... تزوير أيار واستهتار كانون
وسجن يومين للأبطال أورثنا ... سجناً لشعب ووأداً للقوانين
وكان تعويضهم عن حبسهم خطئٌ ... رقّ الألوف وتكديس الملايين
قالوا استقلّ بنا لبنان زعمهمُ ... ما عاد يؤمن فيه غير مأفون
فما تغيّر إلاّ اسمُ سادتهم ... ولم يبدل إلاّ بعض العناوين
قد كان يصدر عن ما رتيل وحيهمُ ... فصار يصدر عن جيمس وعن جون

***

نجوى ... !

امنحي الروض في الخريف ابتسامه
تذكّري أقاحه وخزامه
وابعثي السحر للشباب مدامه
تسكريه وتوقظي أحلامه
أنت مثل الربيع يغذو الكمامه
من ندى الفجر أو سقيط الدموع

***

إن سمعت هزار شعري يناجي
ربة الشعر في سكون الدياجي
فأشاحت بنورها عن سراجي
فابعثي النور من خلال الرتاج
اجتني في الضلوع أزكى نتاج

خمرة الحب في كؤوس الدموع

***

سورة الحبّ للقلوب حميا
فاملأي الكأس من شعاع المحيا
وابعثيه مع الخيال إليّا
تمنحيني الحياة شيئاً فشيئاً
أنت مثل النجوم تكسو الثريا
حلة النور وإزدهار الربيع

***

في السكون الرهيب مجلى لحسي
حيث أخلو لخمرتي ولكأسي
حيث ترثي لشقوتي ولبؤسي
زاهرات الدجى فتهدي لنفسي
من بهي الشعاع نور التأسي
حيث لف الهوى حنايا الضلوع (١)

دمشق - التجهيز - عبد المطلب الأمين

***

(١) المصدر: جريدة (الناقد) الدمشقية الأسبوعية المحتجبة، لصاحبها أديب الصفدي، السنة الأولى العدد (٢٦) نيسان ١٩٣١م. (هاني)

عيناك... !

عيناك قد أملت على قلبي الهوى   فتسطرت بيد الأسى آياته
وسقيته خمر الهيام فما انتشى   إلاّ وقد أودت به سكراته
قد لاح في عينيك أول بارق   للحب لم تخف به نبضاته
سقيت بأنداء الهوى حباته   فنمت بأظلال الشقا زهراته
غرس منابته القلوب وسقيه   صوب الدموع، وسقمها ثمراته[1]

***

(١) المصدر: جريدة الناقد، العدد (٢٧) ١٠ نيسان ١٩٣١م.

سيرته - وما قيل عنه



عبد المطّلب الأمين

شهادات .. ودراسات .. وآراء ..وانطباعات .. وذكريات[1] ..

بأقلام:

- د. رامز الحوراني.
- د. عمار الجمّال.
- محمد شرارة.
- منير مغنية.
- حسن شرارة.
- د. حسين مروة.
- زهير مارديني.
- أسعد شحاده.
- نضال جواد الأمين.



(١) ترتيب الموضوعات في هذا الفصل خضع لاعتبارات فنية وطباعية ولا علاقة لمكانة الشخصية بالترتيب الذي اعتمدناه.(هاني)

من كان في غربة نحن أم عبد المطلب الأمين ؟

بقلم: د. رامز الحوراني
أستاذ النقد الأدبي وعلم اللغة
الحديث في الجامعة اللبنانية

إنَّ معظم الذين تناولوا شعر عبد المطلب الأمين قد أجمعوا على وحدته وغربته ، ولكني بعد الإطلاع على نتاجه وجدت أنه كان على تفاعل حميم مع محيطه. ومع أحداث زمانه، ولكنه لم يتقبَّل كلَّ ما شاهده، وسمعه، فرفض كثيراً من عادات عصره وتقاليده، وكشف زيف الأبواق الإعلامية، والسياسية، والثقافية التي كانت تتصدر تلك المؤسسات، وهذا ما دفعني إلى التساؤل: من كان في غربة نحن أم عبد المطلب ؟

هذا بالنسبة للغربة في معناها العام، أما بالنسبة للغربة في معناها الخاص، وهي الشعور بعدم الانتماء إلى المفاهيم الفكرية السائدة، وعدم التفاعل معها، والابتعاد عن آدابها وطقوسها، وانتهاج غيرها، مناقضاً لها، أو متجاوزاً لأعرافها وسلطانها.. فهذه، في رأينا، ليست غربة.. إنها موقف واعٍ لأن صاحبها يعي ما يحدث في محيطه، وبحكم وعيه يتمرَّد، ويرفض، وينادي بالتغيير، وبهذا المعنى، نصبح نحن في غربة عن واقعنا لأننا لا نعي مايحصل حولنا، ونرضخ لما هو سائد، عن جهل أو عمد.

فالذين يرضون عن جهل، وهم السواد الأعظم، لهم ما يبرّر وضعهم، أما الذين يرضون عن عمد، فليس لهم ما يبرّر ذلك، لأنهم يقبضون ثمن صمتهم ثروات مادية ومعنوية، ويصبحون في دائرة الانتهازيين و....

ومن هنا بدأت بذور المعاناة عند عبد المطلب.. فهو لا ينتمي إلى هؤلاء ولا أولئك إنه ينتمي إلى وعيه الحضاري، وقيمه الإنسانية الراقية.. من أجل ذلك أردت، في هذه المداخلة السريعة، أن أسجّل هذه الملاحظة قبل الدخول إلى العالم الشعري لعبد المطلب الأمين..

في «أن نكون أولا نكون»: تغرّد الجرأة على الشفتين وتحفر لها في الأثير جِداريةً تستمدّ ألوانها وظلالها، من المأساة التي لا ينبت الشعر الحلال إلاَّ في تربتها البكر، ولأنَّ التربة الخصبة بالذهب، يتنافس عليها المتكالبون والأفّاقون الذين يبذرون بألسنتهم غلال التفاهة.

إنَّ عبد المطلب يرسم صورة الكينونة التي يريدها، كينونة خارج القيد المألوف... خارج أنسجة العناكب، وأبخرة الدجل والنفاق. كينونة تقطف الشّهد من الصخور.. من جذوع السنديان، تاركاً لغيره، شهد القصور وثمار الفجور.

فهو لا يعنيه قولات الآخرين، ويكفيه أنه يعيش قناعته، بين سنابل الوفاء وعطور الكادحين.. متاهته الصراحة والجنون وفاقاً لقوله: سيُقال سِكّير تقاذفه القناني والعيون سيقال عربيد متاهته الصراحة والجنون. وفي «غربة»: يطوف الشاعر في فضاء من المفارقات التي تضجُّ بها حياتنا، وكلها لا تُنتج إلاَّ ركوداً، وكدراً، ونتناً، وهذا ما يدفعه للخروج من هذه المهزلة،

والاستقرار في دوحة العقل ، مكتفياً، إلى حين، بالعزف على رنين كأسه التي تنقّي ذاته في زمن يصفه:

نتن العيش أصبح اليوم عطراً   وصدا الجيفة اليوم طيبُ

وفي (نجمة الصبح): يُفرغ عبد المطلب ثُمالة روحه، ويملأ كأسه بخمرة الشعر فتسمو عبقريته إبداعاً، يستقي ماءه من فجوات الألم الذي يُعرِّش في كهوف ذاته، حيث تتوقَّد مراجل الأعماق ، فيتسامى هذا الألم بخوراً يضوع في الأجواء مشاهد درامية، فيها عصارة الحياة، وصدق التجربة، وعمق المأساة، وجرأة الموقف والاعتراف في آن.

فنجمة الصبح منارة الفلاحين للذهاب إلى الحقول، وهي شفق غروبه، فهي لهم بداية وله نهاية.. الناس يرون وجهها، أما هو فيرى قفاها.. وهنا تختلُّ أنظمة الطبيعة الخارجية لِتتكيَّف مع طبيعته الداخلية التي أخذ يدركها الرحيل، والتي أنهكتها رؤى الليل، وأعياها سراه على صهوة الندم حيناً، والتأمل ومنادمة المعاناة في حديقة اللامألوف !

نجمةَ الصبح يا حطام الليالي   ورماد اللُّفافة السوداءِ

أنتِ للنائمين إشراق صبحٍ   ولعينيَّ هجعةُ الظلماء

ثم يحطُّ التماهي رحاله على الاثنين معاً: فنجمة الصبح التي يخالها الناس في أوج إتّقادها، ليست إلاَّ عقباً ذليلاً خافتاً عند الشاعر الذي يذوي عمره، وينهب الليل رحيقه، بعدما كان وجهه يشتعل إشراقاً، وقلبه يزهر حباً، وتتصاعد من خلجاته الأماني الجسام.

وعبد المطلب، من دوحة أبي العلاء المعري، فهو من الشعراء القلائل جداً في أدبنا العربي، ممَّن سطَّروا حياتهم بشعرهم دون مواربة أو التواء، ودون تبييض لسيرتهم ومواقفهم، وقد يعود ذلك، إلى مخزون الوعي، وشفافية قشرة الإحساس لديه، وارتفاع ضغط التوتر النفسي الناتج عن الصراع الداخلي، بين ما يراه الشاعر من تصنُّع وتزييف ودجل ، ورتابة التقاليد في مجتمعه، وتوثُّبه المُتلهِّف لتجاوز هذا الواقع الذي يموج بالأحياء الأموات.

وليس صحيحاً مطلقاً ما يُشاع عند العامة، وبعض الخاصة عن مُجون عبد المطلب الأمين ونؤاسيَّته ، فالمسافة بين أبي نؤاس وعبد المطلب لا يدركها الضوء فالأوَّل كانت له الخمرة دواء (وداوني بالتي كانت هي الداء) والثاني كانت له داءً قائلاً وهو يصرِّح بذلك قائلاً:

جرَّني الكأس للحياة فأدمى ... قدمي البكر بالسُّرى والعياء

أنتَ حطَّمتني وسُقْت حياتي ... في دياجير هذه الظلماء

أنا لولاك جذوة من طموح ... لم تسعها مدارج العلياء

وفي (وضاع العمر): تنفجر الذات، وتتناثر حِمَمُها، وتلتمع خيوط المعاناة ويقذف الجوف الهادر كتلاً من الرواسب، التي أدمت الشاعر وجعلته يشتهي السم حتى لا يملأ فضاءه بحطام الأوهام:

ضلال العمى وضلال البصر ... وحُمّى الملال وحُمّى السفر

ودفء الضياع ودفء السكون ... وَجود التفاهة في المنتظر

بغاء العفاف صراخ السكون   جفاف العطاء، ومحل المطر
وما بين هذا وهذا وذا   تمادى المتاه وضاع العمر

وفي (أمّي دمشق): يغطُّ الشاعر قلمه بزيت الأصالة والوطنية، ويفوح الحب والوفاء من مداد أبياته، وترتفع القيم الدمشقية عالياً، وتتسبح في الفضاء ناشرة الإباء والشموخ والكرامة في الكواكب والنجوم، وضاربة المثل الأعلى، على الأرض العربية، بالإقدام والبطولة ويذوب الشاعر في أجواء دمشق قطراتٍ من الندى ليروي أشجارها، وياسمينها، ووجنات العذارى في شوارعها وأزقتها:

لا تنكري يا شام حبي، لهفتي   أملي، صلاتي وابتهالي والنَّدا
محراب حبك إن سجدت ببابه   سجد الوفاء ملوعاً وتنهدا
كم في سمائك من خيالي موكب   للمجد، كم راض النجوم وجنَّدا
كم في رياضك من فؤادي صبوة   غنَّى الهوى فيها وسار وأنشدا

الشام في قاموس عبد المطلب مورد النور، وثدي العروبة، وعرين الأسود، وجهنَّم الأعداء، وملاذ الفقراء والجائعين، ومنجم الثوار.

على ترابها مات الموت، وتحت سمائها جُنَّ البغيُّ ونفض عنه الجبروت، وتوسَّل عفو شمائلها وطلب الهدى:

ثغر الشآم لقبلة معطاءة   كفم الحبيبة عابقاً وموردًا
لكنه شرس شراسة لبوة   أعطت بنيها كل ما ملكت يدا

لا تحسبي يا شام أني سائل — يبغي العطاء ويستطيب الموردا
طفل أنا يآشام أهوى دفقة — من ثديك الحاني وأغفو سيّدا
عيناك نبراس العروبة قائداً — ثدياك ينبوع الكرامة والندى
كفاكِ والرحمات بعض شمائل — منها،لَكَم خشنتِ على وجه العدى

وفي (اختلال الموازين): ينتفض الحق في جعبة الباطل وينكشف الزيف، وتتعرّى الأشياء، ويضع الشاعر اصبعه على أصل الداء والبلاء:

المجدلية يا يسوع بلا نصير ولا ظهير ولا غطاء
فالبيت قصر الأثرياء والقدس وكر الأدعياء
وروائح البترول تزكم أنف كل الأنبياء
يا شعب، جرحك في يديك وبين كفيك الدواء

وفي (رثاء طاغية): يجول الشاعر في حقول اللغة ويقطف باقة من الكلمات ثم يصوغها في لوحة ساخرة، يُعيد بها من خال نفسه زعيماً إلى غرٍّ معدوم الضمير.

*كتب الشاعر هذه القصيدة في حسني الزعيم عام ١٩٤٩ :

أدعوك ماذا ؟ بالرئيس أم الزعيم أم المشير؟
شبك من الألقاب خفت على اللسان من العثور
حملتها مبهوظ ظهرٍ غير مبهوظ الضمير
إني رحمتك من عظيم اللفظ في المعنى الصغير

ورحمت نفسي أن أهين الشعر في نخل القشور

وجزعت إن قصرت عن شأو الفرزدق وجرير .

وفي (بورسعيد): يتوهّج الشعور القومي ويتصاعد شعلة من الإجلال والإكبار للأبطال الثوار في بورسعيد الذين استشهدوا دفاعاً عن أرضهم إبّان العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ .. وهاهو يصرخ من أعماقه مفتخراً بهزيمة العدوان وانتصار العروبة التي ينتمي إليها:

للذائدين ببورسعيد

سجد اللظى وعنا الحديد

شعبي الذي صهرته تجربة الفدا صهر الحديد.

وفي (غسان كنفاني): وجدانيات عابقة بنسائم الكلمة الحرة، والحالمة بغدٍ خالٍ من عفن الخيانة، وصدأ القعود، ومن أدرى بالشهيد غسان كنفاني غير عبد المطلب؟

فهما ينتميان إلى سرب الصقور ويحلقان فوق الغمام الذي يتساقط ثورة وثروة في حقول القهر واليباس:

من فمك المفصول عن الرأس

من صدرك هذا الراسي

هذا المفتوح على عكا

هذا المعشوشب بالحب

بالنار وبالحقد

شيء يُخرس كل الناس

لن أحكي عن صور الغدر

تلك أقاصيص العصفور عن النسر

فالغادر من قصَّ جناحيه عن عمدٍ

ليبيع حِماه للغاصب والوغد

وخلاصة القول: عبد المطلب في شعره يرفض الحياة التي تسترخي إلى العدم، وينهد إلى الحياة التي تضجُّ بدويِّ الصراع، وتجري في رؤاها أحلام الغد، المثقلة بالسنابل وقوافل المواسم.

ومن أهم خصائص شعره:

١- الاستغراق بالفاجعة التي حوَّلها عبد المطلب إلى مصدر للإبداع والفرح، فهو في قمة حزنه ينصب عرزالاً للضحكه والفرح.

٢- غنَّى مأساة الوجود، وهاجر في معارجها وتضاريسها للبحث عن منفذ للخروج من ممالك الحزن التي تئنُّ بجراح المعذبين.

٣- السخرية الثاقبة التي تتحدّى الحزن والفاجعة، وتصفع التيجان المرصَّعة بالعهر.

الشاعر الذي مات وحيداً
مع أشجانه وآلامه

بقلم: د. عمّار الجمّال

دكتور في العلوم الاقتصادية

إني لأشفق على قلمي عند التحدث عن شاعرنا الكبير عبد المطلب وعبقريته الفذة، من أن يعجز عن إعطائه حقه، فهو ينطبق عليه القول هو البحر من أي النواحي أتيته.

فما أدري ما أقول عن دبلوماسي وسياسي لامع، أم على الأديب المبرز صاحب البديهة التي تومض كالبرق، أم على الجليس الأنيس بنكاته الذكية والسريعة، لا يملّ جليسه من مجالسته، فهو الأديب الظريف والعالم والشاعر والراوية والمحدّث، وأخيراً وليس آخراً هو الشاعر المجلّي في مختلف أبواب الشعر وفنونه ماعدا المديح، فإنه كان يردد دائماً بقوله: (فلا أنا مدّاح ولا أنا شاعر) .

عرفته وأنا صبي صغير أتنقل بين دارنا وداره المجاورة، ولازمته معظم أدوار حياتي بدمشق رغم فارق السن بيننا، وكنت أعتبره دوماً الأخ الأكبر لي، إذ إن والدي(١) كان قد تتلمذ على يدي والده العلّامة الكبير والمجتهد

(١) هو الشيخ الجليل علي الجمّال الذي يعتبر من أبرز علماء دمشق وكانت له أحاديث دينية تبث من إذاعة دمشق. (هاني)

الأكبر السيد محسن الأمين، رحمه الله، ولازمه حتى آخر حياته في مشفى الدكتور مروة ببيروت.

وكان والدي يعتبر نفسه كما كتب في سيرته الذاتية: (وأنا حسنة من حسنات علاّمتنا المجتهد الأكبر) فكان من الطبيعي أن أنشأ متنقلاً بين دارنا وداره، وولجت الحياة الأدبية والإجتماعية من خلاله، وكنت الجليس الصامت معظم الأيام لصغر سني، متنقلاً معه بين مقهى الهافانا ومقهى البرازيل اللذين كان يرتادها حينذاك الأدباء والشعراء والسياسيون والظرفاء بدمشق.

استهل شاعرنا الدبلوماسي حياته الدبلوماسية والسياسية في أواسط الأربعينات من القرن الماضي، رئيساً للبعثة الدبلوماسية السورية في الإتحاد السوفييتي، بذلك اللقاء الشهير مع ستالين ووزير خارجيته مولوتوف عند تقديم أوراق اعتماده كأول رئيس بعثة لسورية في موسكو، بعيد الحرب العالمية الثانية، ومعانقته له، ناقلاً رسالة شفهية (اختلقها من رئيس الجمهورية السورية إلى سيد الكرملين) بأن سوريا لا تطمع ولا بشبر من أراضي الإتحاد السوفييتي.

وفي ميدان السياسة سألته في ربيع ١٩٥٢ بعد زيارة قصيرة قام بها إلى القاهرة، عن أخبار مصر بعد حريق القاهرة، فأجابني يومئذ أن الملكية قد انتهت في مصر، والذي سيقوم بالإنقلاب إما الجيش أو الأخوان المسلمين ولا ثالث لهما.

حمل والدي رسالة خطية من والده إلى وزير الخارجية، آنذاك، سعد الله الجابري، طالباً عودة ولده عبد المطلب إلى سوريا، فأجابه أن رغبة سيدنا

هي أوامر، ولكن أرجو أن تنقل إليه أننا بأمس الحاجة لعبد المطلب خارج سوريا، فهو وفي موسكو وراء الستار الحديدي، يكتب لنا تقريراً سياسياً عما يجري في لندن وباريس (وكان ذلك بمعرض مشروع اتفاقية بيفن - بيدو السرية)، يعجز كل من سفيرينا في باريس ولندن عنه.

خاض شاعرنا غمار الأدب والعلم والمعرفة، فكان أستاذاً لكل من خاض هذا المضمار. أتقن اللغات الأجنبية فكان متمكناً من الروسية، والإنكليزية، والإيرانية، والفرنسية، والألمانية، وكان يحاضر بكل منها ارتجالاً دون أي تحضير..

كان يتمتع بذكاء لماح وبديهة سريعة ملؤها الظرف والأدب والعلم والمعرفة. وفي الوقت نفسه كان يشكو من تنكّر الناس ممن حوله، أحياناً من قلة وفائهم، فلخص مأساته بقوله:

أعوزتني صداقة الناس فاملأ   بحطام الأوهام فقر فضائي

كان متواضعاً في معيشته وفياً في حياته، متنقلاً بين أرقى المجتمعات والمجالس الأدبية والسياسية والشعرية، وبين الجلسات المتواضعة مع شريحة بسيطة من المجتمع أو الشعبية منها فيقول:

ثم ماذا، أخون فيك صديقي   وسميري وسلوتي وعزائي

كان من حيث الظاهر يحمل في نفسه المتناقضات، ولكنه في الحقيقة كان منسجماً مع إيمانه وما يعتقده اجتماعياً عندما يقول:

كأنني لم أعش أمسي ولا عبقت   بين الشفاه عطور سمحة ودم

كان يعارض قصائد المشاهير من الشعراء، فيشتهر قوله لما فيه من سخرية وتهكم أحياناً على حساب الأصل. لم يهتم طوال حياته بحفظ شعره وجمعه فتناثرت قصائده هنا وهناك. وكنا ندوّن بعض قصائده في جلساتنا الخاصة عند نظمها مباشرة. وبذلك رويت بعض قصائده من قبل جلسائه في حينها. كان واثقاً من نفسه عن معرفة وواقعية حيث يقول:

أنا لولاك جذوة من طموح　　　لم تسعها مدارج العلياء

وفي الخمسينات من القرن الماضي، كان صديقاً حميماً لرجل أحد الإنقلابات العسكرية، وكانت مأساته الشخصية تسريحه من السلك الدبلوماسي ظلماً وحسداً، وبالرغم من صلاته الحميمة مع رجل الإنقلاب، آنذاك، رفض مقابلته والطلب منه أن يحل مشكلته، وعرضت عليه أن أرافقه لزيارة ذلك المسؤول، فأبى مترفعاً وقال: أنا لا أقف على باب أحد وأطلب منه شيئاً.

كان يتألم من المنافقين والمصانعين في مجتمعه وينعتهم بقوله:

العازفون كما علمت هم هم　　　ومطيبو أمس هم من طيبوا

والراقصون على القبور هم هم　　　هي صنعة ما عزّ فيها المطلب

فلكل حالٍ لبسها ولبوسها　　　ولكل شارٍ ما يروم ويرغب

كان ثائراً وفياً مخلصاً منسجماً بسلوكيته مع قناعاته.

كان ثائراً على طريقته الخاصة..

ثائراً على زيف المجتمع..

ثائراً على النكران والجحود..

ثائراً على اليأس والخنوع..

ثائراً على الفساد..

ثائراً على الظلم والطغيان..

كان عنيفاً في ثورته.. وفي ذات الوقت مرهف الحس رقيق الشعور.

عاش وحيداً في أعماقه.. وغرّد طويلاً خارج سربه.. ومات وحيداً مع أشجانه وآلامه.. إذْ لا كرامة لنبي في قومه!.

بيت الفكر والوطنية

بقلم: محمد شرارة

عبد المطلب الأمين، الشاعر الحسّاس، الذي فقده الأدب العاملي خصوصاً والأدب العربي عموماً، هو واحد من أبرز أدباء جبل عامل (الجنوب)، وواحد من ألمع شبابه الذين غنّوا بؤسه وواكبوا انتفاضاته، وأسهموا في بذر بذور ثورته على الإقطاع والتخلف والرجعية.

غاب هذا الشاعر الإنسان بصمت، كما عاش أيامه الأخيرة بعيداً عن دائرة الضوء. ولكن الذين سيدرسون تاريخ الجنوب بالغد، سيرون أنه كان في قلب الحدث الثوري الصاخب.

عبد المطلب الذي فقدناه هو قطعة من هذا الديباج الغني بالتماسك والفن والجمال، وحلقة من هذه السلسلة الإنسانية القادرة على إلهام أروع القصائد وأبعدها خلوداً، هو ومالك، وأشباه مالك وأشباهه، يكونون التاريخ الحقيقي للإنسان. وفي الغد القريب لن يكون التاريخ للقتلة وسفاكي الدماء، واللاعبين على الحبال البهلوانية، بل لن يكون إلاّ لعبد المطلب وأمثاله من الدعاة إلى الخير والحب وكل ما في الحياة من جمال. وإذا سكتت قصائد

أصحابه الآن، ولم تقل فيه ما قاله متمم في مالك، فلأن الانفعال الذي أحدثه موته في نفوس أحبابه، وأكثرهم شعراء وكتاب كبار، لا يزال كبيراً جداً. والشعر بحاجة إلى نوع من الاستسلام. وما دام الانفعال في أوجه تبقى غرفة الألم والدموع مغلقة على نفسها.

أبرز ما في عبد المطلب أنه كان مؤمناً بعبقرية العقول الإنسانية وقدراتها على الإبداع، وكان إيمانه بالعبقريات على قدر إيمانه بالشعب البسيط الكادح الذي ينتظر الفرص حتى يتحول إلى طاقة قادرة على إنشاء الخيرات والرفاه، وكان يجاهد بفكره وقلمه لجر الفرص من سماء الأماني والأحلام إلى الأرض. وفي ضوء هذا الإيمان كان يسخر من فلسفة (الفانوس) اليوناني الذي كان يشعل فتيله في ضوء الشمس بحثاً عن الإنسان، أو بحثاً عن التمييز بين عظام الملوك، وبقية العظام البشرية. وكان يقول عن ديوجين: (إنه فيلسوف أحمق ولكنه ظريف !).

أغاني الشعب في مواسم أفراحه وأحزانه، ومواسم كدحه في الحقول، كانت تؤلف جزءاً عزيزاً من ثقافته، وكثيراً ما كانت الصور الفنية المتواضعة تستثير إعجابه وتقوده إلى المقارنة بين صياغة الأغنية وصياغة الشعر في التعبير عن الخلجات النفسية.

وفي بعض الأحيان تنتهي المقارنة لمصلحة الشعر الشعبي، ولم تكن الحماسة للأغنية قادرة على التخفيف من قيمة اللغة الفصحى أو التهوين من شأنها، بل ظلت اللغة في رفرفها العالي، وفي أبراجها القصوى في التعبير عن جميع الشؤون علمية كانت أو أدبية. ولم يضعف إيمانه لحظة واحدة بقيمة

الشعب ونبله على رغم المتاعب التي كانت تطارده وتطارد إيمانه. وكما كان يسخر من ديوجين لكفره بالإنسان، كان يسخر من قول شوقي:

والجماهير ثنايا المرتقى للمعالي وجسور العابرين

وكان يقول: إنه ببغاء من ببغوات غوستاف لوبون، ثقافة شوقي لوبينية نسبة لغوستاف لوبون، وقد كان لبيته على ما أعتقد.. أثر كبير في تكوينه النفسي والوطني والأدبي، فبيته من أرفع البيوت مكانة في هذه البقعة من الأرض وفي غيرها أيضاً، وعلى مكانته العالية كان من أكثر الناس تواضعاً وبساطة وحباً للناس، كما كان من أشدها حباً للخير والإصلاح والتطور الاجتماعي والوطني والثقافي.

في الوقت الذي كان الاستعمار الفرنسي يبتكر الوسائل لإثارة الطوائف على بعضها، وتحويل الشعب في سوريا خاصة إلى فرق وكتائب متصادمة، كان السيد محسن الأمين من أقوى الدعائم المسلحة في الرد على إثارة النعرات الطائفية، ومن أقوى الواقفين أمام وجهها الأسود، وإزاحة النقاب عن ملامحها الخبيثة، ولما عرضت فرنسا إقامة محاكم شرعية خاصة للشيعة في دمشق رفض السيد الأمين هذا العرض الماكر. لقد كان يدرك إدراكاً حاداً ما ترمي إليه فرنسا من وراء ذلك العرض اللئيم، وكان يعرف معرفة عميقة أن ذلك لم يكن كرامة وحباً بالشيعة، بل مؤامرة على الوحدة الوطنية ومن وظيفته أن يحبط المؤامرة، ويردها قبل أن تتحول إلى جنين. وقد قدر له الوطنيون في دمشق هذا الموقف وأمثاله من المواقف.

وفي الوقت الذي كان بعض العلماء في النجف يعقدون المؤتمرات لمواجهة مشروع مدرسة للبنات ووأده قبل ولادته في المدينة المقدسة، كان

السيد الأمين يضع بيده الحجر الأساسي لبناء مدرسة البنات في دمشق. لأنه كان يدرك أن المرأة الجاهلة لم يعد لها مكان في هذا العصر. أما الدين الذي حاول أن يلجأ إليه دعاة الوأد العلمي فلم يكونوا أفضل منه في معرفته، بل لم يكونوا بمستواه في الاجتهاد ومعرفة الدقائق والأسرار الدينية. ومن المعلوم أنه كان أحد المراجع الكبرى في زمانه. ولا تزال كتبه وآثاره مصدراً مهماً من مصادر التشريع والبحوث الإسلامية.

وفي الوقت الذي كانت مواكب العزاء في العراق وغيره صورة من صور الدعاية السيئة للقضية الكبرى، التي استشهد في سبيلها الإمام الأعظم عليه السلام ، وأصحابه الطاهرون، كان السيد محسن الإمين ينشر رسالة (التنزيه) ويبرئ القضية والدين من العمل الهمجي والأسلوب الغوغائي، وكان يعرف ما ينتظر الرسالة من الغوغاء وقادتهم. لقد قوبلت هذه الرسالة العظيمة بطوفان من الأكاذيب، وأثيرت الجماهير اللاواعية عليها وعلى كاتبها. ولكن النجف التي كانت في طليعة الثورة على الرسالة لم تخل من الطيبين الدعاة. وقد أخذت هذه الكوكبة الرائعة على نفسها أن تواجه التيار، وأن تصدّه مهما كان الثمن الذي تدفعه، وتحركت بالفعل في وجه الزحف الأحمق وتعرّضت للمد الغوغائي بكل ما تملكه من لغة المنطق ونصاعة البيان. واستطاعت أن تلقي في حفلة واحدة أربعين قصيدة وخطبة في الدفاع عن السيد وعن رسالته، ثم جاءها العون من بغداد، فكتب السيد أحمد جمال الدين رئيس محكمة الاستئناف، وسلمان الصفواني صاحب جريدة اليقظة سلسلة مقالات في الدفاع عن الرسالة. وكان لهذا الدفاع أثره في كشف الحقائق وتمزيق المد الغوغائي في النهاية.

واتضح للناس المخدوعين أن السيد أرفع مما يتصورون، وأنه المصلح الكبير الذي يجب على الأمة أن تباهي به بقية الأمم.

في مثل هذا البيت الذي كان على رأسه مثل هذا السيد العظيم نشأ عبد المطلب، ونشأت معه الوطنية والفكر الألمعي، وحب الشعب، والحرص على تطوره حتى يقف مع الشعوب الراقية في صف واحد، أو حتى يكون بمستوى العصر.

وظيفته الدبلوماسية في فترة من فترات حياته الشابة، كانت عوناً له على رؤية العالم، كما كانت ثقافته عوناً له على المقارنة بين الفكر الأوروبي والفكر العربي. ولما عاد من موسكو طلبت منه إحدى الكليات في جامعة بغداد أن يلقي محاضرة على الطلاب والطالبات، فأجاب الطلب، وألقى محاضرة عن (المرأة في السويد) تعرّض فيها إلى الحقوق التي فرضها الإسلام للمرأة، وحقوقها في القانون الفرنسي. وكانت المحاضرة جديدة في وقتها على السامعين والسامعات، ولاقت ما تستحقه من الاهتمام.

لقد كان شاعراً وكاتباً ومترجماً، وكان فوق ذلك كله إنساناً كبير القلب والروح، كما كان عنقوداً رائعاً من الشموع، وقد انطفأ دفعة واحدة بعدما ذاب قطرات.

لقد رحل كما ترحل أغنية حلوة من أغاني الحب، وسافر كما يسافر سرب من أسراب العصافير عن الغابة، وغاب كما يغيب القطا عن الدروب التائهة في الصحراء، هذا هو عبد المطلب الذي فجع إخوانه بفقده ،وفجع به الشعب الذي كان يحبه.

عبد المطلب الأمين

بقلم: منير مغنية

في مفرش الحزن وأغاني الرحيل لم أجد عندي ما أزيّن به شراع عبد المطلب الأمين وهو يقلع من ميناء الاغتراب الأخير، إلاّ دماليج الأسار والتعب.. وفي كهف الصراخ والليل الطويل، لم أجد إلاّ الصمت وقناديل الأحلام المطفأة، ولم أعجب ولم تخجل بي الكلمة لأن عبد المطلب الأمين لم يسافر في الموت كما نسافر وإنما ككل الشعراء لفّ جرحه على صهوة جواد آخر وطار في رحلة أخرى يجوب موانئ النجوم.. ولأنه أصلاً ليس ممن يسقطون في عربة الموت البلهاء من فرط الراحة في الغباء والتفاهة واحتلاب الرتابة والرضى واجترار الحياة الأجوف، وإنما مزماره مشدوداً أبداً إلى قلبه، وصليبه على كتفيه وهو ينشر الأغاني والأناشيد شعراً وضحكة وفكراً وحباً، كالأبطال والشهداء قد أسقطهم الموت من حسابه لأن لهم موهبة الحياة بلا خوف وأنفة الرفض بلا تكبر ولأنهم أنقياء لم يتدنسوا بالنفاق وبما يُحكى للاطفال الكبار من سير الفضيلة والخطايا ما يجوز وما لا يجوز.

وعلى رصيف المنارة في ميناء الاغتراب ألقى المسافر مزاميره ... حديقة شعر وحب وجدول حكايا حلوة وسخريات مضحكة مبكية.. مساحب أظافر من وجه الترهات وقبضة صراخ وحكاية تحد وأغاني عودة وحنين..

وفي مزامير هذا الشاعر العملاق أنشودة الغربة السحيقة في رحاب الحياة، مأساة الوجود الأولى، ولقد غنّاها وهاجر فيها عبد المطلب الأمين كما هاجر فيها وغنّاها قبله الحطيئة وطرفة وفرلين يفتش للناس عن باب الخروج في مملكة الحزن وفانوسه فيها الكلمة يقرع بها جدار الصمت الأبدي ويفقأ بها الأعين الزجاجية، في معانقة صليبية واحتضان دافيء لجراح الغرباء على الأرض ممن يتنازعهم الشوك، شوك الحياة وسوائمها التي تدب بصفاقة فتدوس الورود وتدنّس الرياحين، مجرد أحداث متحركة في المقابر. منذ زمن بعيد لم يغنِ أحد في العربية الغربة كما غنّاها عبد المطلب الأمين ذلك أن الغربة ليست عنده توأم الوحدة والوحشة، وبالتالي تكوراً للألم في الألم ونهشاً للنفس بالنفس وإنما كانت أفق محبة وطريقاً نحو عالم آخر لا يجر فيه أحد مغترباً لأنه نهر الحب والحرية.

وثمة في مزامير الشاعر الراحل الآتي أنشودة أخرى للكلمة الضاحكة حديثاً أو قصيدة أو مقالاً وهي عنده مذهب فريد أصيل في النقد السياسي والاجتماعي وفي السخرية الهادفة يلج بها الحزن ويحكي الغبطة ويروي عن الحياة ويصفع بها أقزام السياسة المنصبّين طغاة وجبابرة وبقايا العبيد ويكشف بها الغطاء عن وجوههم القذرة.. وضحكته تلك من فرط دقة كلمتها وأناقتها وعمقها فيض المأساة فيها تبكي وقلّ أن تشتبك فيها دموع في دموع.

ولعلّ أروع مزامير الشاعر الأمين هي أغاني العودة والحنين وأناشيد الوطن والأرض ومن ينبض القلب بحبهم من الناس المزروعين في الأفئدة والأكباد الذين بهم يكون الوطن أو لا يكون.

وإذا كانت جراح غربة الشاعر السحيقة الحالمة قد تنازعته وأدمت وجهه ويديه إلاّ أنه لم يكن يبصر إلاّ وطنه، مبسوط الذراعين أبداً نحوه في لقاء مستمر وفي عينيه آماله وعلى جبينه مسحة من ترابه يتنشقها كلما أعوز الطيب ومات الربيع.

لم يمت الشاعر عبد المطلب الأمين وإنما سقطت الشمس في نهار وأطفأت شموع الليل وانتحرت قوارير الطيب وهاجرت الحساسين إلى غير رجعة.



الشاعر.. أو عبد المطلب الأمين

بقلم: حسن شرارة

يوم يولد، تولد دنيا جديدة، ويخلق كون جديد، تولد دنيا جديدة لا تخوم لها ولا حدود، ويخلق كون لا ثرى له ولا سماء!

دنيا ملاعبها في أراجيح الوهم والظن والرؤى والخيال، ولا أرض لها ولا سماء، وإنما هي طيوف وأحلام وهواجس مستطارة تهبّ من هنا وهناك كما يهب النسيم الرخي في رحاب الأفق، وتتدافع كما يتدافع النور وينداح على وجنة الكون وفوق صهوات الأثير!

تولد معه أحاسيس لم تكن معروفة ثمة من قبل، ومشاعر لم تكن قد ولدت منذ زمن، ووتر وظل ووحي كانا في عالم الغيب دفينين رهينين بمولده وبعثه!!

ويوم يموت، تموت طيوف إبداع كانت في يديه ملكاً، وأدوات خلق كانت في حوزته رقاً، ومفاتيح رؤى كان يفتح بها المغالق ويطل منها على الغيوب!

يوم يموت، يموت الفكر الحالم المتوقد الذي كان بالهاجس هجس، والوجدان المتفتح الذي كان بالمعنى حدس وهمس، والطيوف والرؤى التي كان منها الخيال والظن يتفجر وينبجس !

ويل للطبيعة من مولده وموته، وويل العاطفات المجنّحات، والنظرات الشاردات الحالمات من لها إلاه كيماوياً يفكك طلاسمها ومنجّماً يقرأ خفاياها، وعرّافاً ينظر في باطن اليد فيقرأ فيها مغيبات الزمن ومحجبات الحياة ومعميات الطلاسم !

وتحرمه الحياة أحياناً عينيه، وتدعه ضريراً لا يبصر وأعمى لا يرى، ثم يتطلع هو والمبصرون في مفاتن الكون ومغالق الحجب فيبصر بقلبه ما لا يبصرون، ويرى ببصيرته ما لا يرون، ويدرك بخياله وحسّه ما لا يدركون ويحسّون !

قال بدوي الجبل في ذكرى أبي العلاء يصف عماه ويعتذر عنه قال:

من راح يحمل في جوانحه الضحى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ هانت عليه أشعة المصباح!

ليس هو ملكاً لأحد، أو تابعاً لأهل، أو منتمياً لعشير، وإنما هو رسول الضمير الإنساني يبلغ رسالته بأمانة، وسفير القلوب والأرواح والسرائر يترجم بلغته لغاها وينقل ببثه نجواها، ويبوح ببوحه مكنون أسرارها ولواعجها وهواها.

وهو عسير الولادة، يتطلب مخاضاً صعباً شاقاً محاطاً بالعنى مغلفاً بالأسى، مشوباً بالأوجاع. نادراً ما تلقى أماً تلد الفنان أو الشاعر أو الملهم،

فواحده ابن الأجيال والقرون وواحده هبة نادرة تهبها الحياة كما تهب الأنبياء، وتجود به الدنيا بخيلة لأنه من صيد السماء، وتتنفس عنه الأحقاب وتلقي به كما ينقب علماء الآثار في مضاجع التاريخ فلا يجدون ضالتهم إلاّ بعد معاناة ومتاعب ومشاق !! .

لما توفي علي محمود طه المهندس الشاعر المصري المعاصر، وكان من شعراء الشباب في سن عبد المطلب أو يكاد وقف زميله الشاعر إبراهيم ناجي في حفلة ذكراه يؤبنه ويقول :

املأي الأرض من حداد وغيهب ... مال نجم البيان عنك وغرّب
يا سماء القريض ما كل يوم ... من بني الشعر تظفرين بكوكب

وقولةُ إبراهيم ناجي قولةٌ حقةٌ بشأن الشاعر ومولده، وبشأن الشاعر وبزوغه، وبصدد الشاعر ابن السماوات العلى ومطلعه !

يطلع فيشرق نور جديد على دنيانا، ويبزغ فيلوح سناء يكشف أمامنا مجاهل كانت مغلقة، وآفاق كانت موصدة، وعوالم لم يكن قد رآها إنسان!

ثم يضع اصبعه على سرائر النفوس فيحكيها باللحن البديع، ويضع يديه على هواجس القلب فيصوّرها لنا بالتصوير الرفيع ويمتطي خياله الذلول اللعوب إلى مجاهل الكون والدنيا ويكشف لنا عمّا فيها وما تحويه من جمال مغيّب وسحر وخير ونعيم محجّب !

أدواته وأشياؤه التي يستعملها، وسلاحه وذخيرته التي يتمرّس بها، عينان غزلتان لهما حدقتان فريدتان، وقلب تسيل في شرايينه دماء من سائل

خاص، ومزاج فريد حرون متمرّد استعصى قياده على العنان وندّ زمانه عن تحكم الفارس !

يرى الأشياء كلها بعين غزله، ويحدج الوجود بنظرة ولهى هائمة، ويتأثر بالمنظر والموقف والقضايا تأثراً عميق الانفعال، أريحي التأثر منغماً رتيباً له موسيقى وفيه إيقاع، إذا نبض قلبه فلا ينبض إلاّ على قواعد موسيقية، وإذا ما هفت ورفّت روحه فلا تهف وترف إلاّ على طراوة الإحساس ونداوة المشاعر، وإذا بكى فبكاؤه ذوب من عبرات الأزل، وإذا ضحك فالكون جميعه أرجوحة متمايلة تحت قدميه يتهادى بها مع الوجد والحنين والحبور الشارد الولهان !

وإذا مات الشاعر فتموت بموته أماني كانت تشرب من غدران قصيده، وتذبل نفوس وتذوي كان يرش عليها من ذوب نشيده، وتدلهم دنيا وتعتم آفاق كان ثمة يضيئها وينيرها من قناديل فكره وقلبه وأنواره !

وعبد المطلب المزمار الذي سكت، والمزهر الذي خرس والكوكب الذي أفل، له شخصيته وله قسماته وملامحه من بين شعرائنا المعاصرين، ولا مجال هنا لتقويمها وتفتيتها والنظر فيها طويلاً.

إن ذلك يحتاج لدراسة على انفراد وتطلع إلى آفاقها على حدة، وأغراضه التي عالجها ومواضيعه التي طرقها هي من الشرف والرفعة والسموّ في مكان، والنغم الذي صعّده، والوتر الذي ضرب عليه، طالما أمتع وأسكر وطالما أفزع وأوجع، وطالما هزّ بالنقرة عليه مضاجع الليالي وألوى بأعطاف الأيام !!

لأدع الشعر يقول في الشعر، ولأترك الشاعر يحدثنا عن الشاعر، فذلك أبلغ من قولي وأنا لست من أرضه، وذلك أفصح من بياني وأنا لست من سربه، وذلك أوضح وأدق تصويباً إذا كان الهدف في الأعالي، والمرمى في الذرى، والغايُ بعيدة عن أرض النثر ولكنها قريبة من سماء الشعر ! .

إلى عبد المطلب الأمين !

بقلم: د. حسين مروة

عبد المطّلب ! .

هل هدأ جرحك الإعصار ؟.

هل خمد جرحك البركان ؟.

جرحك، أقول.. لأن حياتك كانت كلها سفراً في الجرح ينزفك إعصاراً، أو ينزفك بركاناً، أو ينزفك مطراً ربيعياً خصباً أو رماداً ثلجياً يحكي حكاية اغترابك القسري...

قالوا: أنت أردت حياتك سفراً في الجرح إلى النهاية..

وقالوا: أنت بيدك صنعت (اغترابك) عن عالم (الأشياء المألوفة) !..

لو عرفوا من أنت في حكاية (الاغتراب)، ومن أنت في رحلة الجرح المسافر، لعرفوا أن عالم (الأشياء المألوفة) هو السكين وهو الجرح، وهو ثغرة (الاغتراب)..

لو عرفوا كيف أنت حتى في (اغترابك) القسري، لعرفوا أنك لم تكن مغترباً.. أنت لم تغب لحظة عن عالم (الأشياء) الأخرى التي تكافح اغترابك.. كنت حضوراً دائماً في عالمنا نحن عالم الناس الذين يكافحون اغتراب الإنسان عن إنسانيته، وعن إبداعه، وعن معنى وجوده الحق..

ناس كثيرون، أنا أعرفهم.. ناس كثيرون أرادوا - مراراً أرادوا - أن يركبوا سفينة الجرح: جرحك، ورفضت بكبرياء .. رفضت وأنت في رحلة الجرح لا تسعفك الريح ولا يسعفك الشراع .. رفضت ريحهم وشراعهم، لأنك ترفض اتجاهاً آخر لسفينتك غير الاتجاه الذي يدعوك إليه الجرح نفسه، لتكون دائماً في موكب المدافعين عن جراح الإنسان، المحاربين لغد يعيش فيه الإنسان حديقة فرح..

ناس كثيرون يملكون ألف نوع من الريح وألف لون من الأشرعة، أرادوا أن (تبيعهم) قليلاً - ولو قليلاً - من نزف الجرح، جرحك: إعصاراً كان النزف أم بركاناً أم مطراً ربيعياً.

خصباً أم رماداً ثلجياً من رماد (اغترابك) القسري، ورفضت رفض الكبرياء، لأنك كنت تعلم ماذا يريدون.. كنت تعلم أن رياحهم وأشرعتهم تريد أن تعود بك من سفر الجرح النازف، إلى عالم (الأشياء المألوفة) نفسه الذي صنع لك السكين والجرح وثغرة (الاغتراب)... كنت تعلم أنهم يريدون لسفينتك أن ترسو عند جزيرة (الخنازير البرية) لينهشوا جرحك، لتصبح (شيئاً) ما من (أشيائهم) فتصبح فراغاً دون إعصار، دون بركان، دون مطر ربيعي، حتى دون رماد ثلجي.. رفضت، لتبقى معنا، وبقيت..

عبد المطلب ! .

هل انتهيت ؟ .

بل، انتهى رماد الجرح، وبقي منك مالا ينتهي أبداً..

بقي المطر الربيعي الخصب الذي كنته شاعراً، وكنته إنساناً..

كم أحببت الحياة والإنسان !.

أحببتهما حتى الفرح المشع ملء حجيرات دمك..

أحببتهما حتى الحزن المسكون بهنيهات الفجيعة..

كنت الفرح والحزن يصطرعان.. كنت الحزن والفرح يعتنقان..

لولا الجرح لكنت الرعد يفجّر أسخى الينابيع.. لكنت النهر ينضج يسكن شاعرية الضفاف والثمار. لكنت الفارس يمتشق البركان والإعصار. مقاتلاً معنا أعداء الحياة والإنسان.

لولا الجرح؟ ..

مات الآن رماد الجرح، وبقيت..

شاعر استعجل الرحيل

بقلم: زهير مارديني

لا يستطيع الدمشقي، مهما خرج من دمشق.. أن يخطو خطوة واحدة تبعده عن دمشق، إنما يخطو في دمشق، رغم كونه بعيداً عنها.. كذلك كانت حال عبد المطلب الأمين، الصديق.. الساخر.. الشاعر .. الكاتب.. المتحدي للوجود وأهله !

ومع أن عبد المطلب من جبل عامل فلم يلتصق بهذا الجبل وحده بل التصق بدمشق التي أحبته وأحبها.. وشأن المحبين فرض عليهما الفراق، فإذا به يعيش ببقايا جسمه في بيروت، وبكل روحه في دمشق.. وحين نقلوا جثمانه إلى جبل عامل، كانت روحه تحلق فوق البيت الطاهر (بالخراب)[1]، البيت الذي كان يحج إليه أهل دمشق في الملمات، بيت والد عبد المطّلب . الراحل السيد محسن الامين، والبيت الذي تربى فيه عبد المطلب ونشأ وتعلم...

(١) التسمية القديمة لحيّ الأمين بدمشق وقد استبدل الاسم القديم بتسمية جديدة هي (حي الأمين) تكريماً للعلاّمة السيد محسن الأمين. (هاني)

طيبي دمشق ثرى وطيبي محتدًا عبق الجنان على ثراك تجسّدا
وأشم تربك عاشقاً بل عابداً طفلاً بأحضان الأمومة وسّدا

كان عبد المطلب رجلاً يعيش خارج جسده.. ككل الشعراء الذين لا يعرضون بضاعتهم في سوق نخاسة الشعر، كان شعوره هو سر شقائه ومعاناته.

من الصعب على رفاقه القدامى أن يعبروا عن إحساسهم بغيبة صديق قديم.. يوماً بعد يوم يدرك المرء أنه لن يعود إلى سماع ضحكة هذا الرفيق.. لن يعود إلى سماع شتائمه.. وأشعاره وضحكاته الثائرة.. ويبدأ الإحساس بالحزن.. حزن هادئ نحس فيه أن ما فقدناه لا يعوّض!.

كان عبد المطلب نموذجاً فريداً للمواهب المتجمّعة في شخص يصرّ على (بعزقتها).. فقد كان عبد المطلب يحتقر هذه المواهب ويمزّقها بكل ما يملك من قوة.. لأنها جعلته يغرّد في غير سربه..

كان يؤمن بالإنسان في زمن يُباع فيه الإنسان بمقدار ما يقدم من نفاق، ويرتفع الثمن كلما زاد الإنحناء، فإذا وصل الرأس إلى الأقدام يكون الثمن باهظاً.. وكان يؤمن بالكلمة في عصر تُعتبر فيه الكلمة أرخص السلع وأحطّها.. كان شاعراً وكاتباً في مجتمع يعتبر هؤلاء من سقط المتاع. كل هذا على حساب هذا الوعاء الذي يسمّونه الجسد.

حين أرادوا إنشاء وزارة الخارجية في سورية أعلنوا عن مسابقة فتقدم إليها عبد المطلب الأمين الحائز على شهادة الحقوق بامتياز ودون دراسة.. ونال عبد المطلب الذي يتقن العربية والفرنسية والإنكليزية أعلى العلامات،

وعيّن موظفاً في وزارة بدأوا في إنشائها، فكان من ألمع الموظفين بشهادة جميع وزراء الخارجية الذين تعاقبوا على الحكم قبل انقلاب حسني الزعيم..

أذكر ذلك ولا أنساه .. أذكر اللقاء الأخير بين سيد الدبلوماسيين العرب وأصدقهم وطنية المرحوم سعد الله الجابري وبين رئيس البعثة الدبلوماسية السورية في موسكو عبد المطلب الأمين...

كان ذلك في فندق أوريان بالاس، وكان الأطباء قد منعوا الدخول على الراحل الجابري، وجاء عبد المطلب الأمين إلى دمشق في إجازة.. ولأنني أعرف مدى الحب الذي يكنّه الجابري لعبد المطلب ذهبنا معاً إلى الفندق..

كان الجابري رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية، وهو الذي اختار عبد المطلب لمنصب القائم بالأعمال في موسكو.. وصادف أن عقدت اتفاقية بيفن - بيدو بغفلة عن الحكومتين السورية واللبنانية، ولم يكن سفيراً الحكومتين في كل من باريس ولندن يعرفان أي شيء عن هذه الاتفاقية... وهبّت المعارضة في دمشق تطالب حكومة الجابري بالاستقالة... وانتظر الجابري في وزارة الخارجية على أمل أن يرده نبأ ما ينقذه من ورطته، وحين يئس ذهب إلى المجلس النيابي وقد صمم على الاستقالة...

وبينما كان الجابري يستعد لدخول قاعة المجلس أُخبر بأن برقية وصلت من موسكو تتعلق باجتماع وزراء خارجية الدول الكبرى، وإن مرسلها هو رئيس البعثة عبد المطلب الأمين..

وأجّل فارس الخوري الجلسة نصف ساعة ريثما يأتي حل رموز البرقية... وحين اجتمع المجلس وقف سعد الله الجابري وأعلن نصوص اتفاق بيفن - بيدو، ثم أعلن رفض سورية لهذا الاتفاق...

لهذا طلب سعد الله الجابري أن يرى عبد المطلب الأمين بالرغم من أوامر الأطباء.. ودخلنا الغرفة معاً.. وبمساعدة الممرضة رفع الجابري رأسه، وقال لعبد المطلب:

- أنت يا عبد المطلب فخر شباب سورية، فإذا أحياني الله فسأكافئك.. ولكن قل لي كيف استطعت الحصول على نصوص الاتفاقية؟ وروى عبد المطلب القصة بأسلوبه الساخر...

-(القصة يا دولة الرئيس ما بدها شطارة.. قرأت النبأ في جريدة برافدا في الصباح، وعند الظهر وصل وزراء خارجية الدول الكبرى، ودعينا إلى مأدبة أقامها ستالين تكريماً للوزراء، ودولتك تعرف أن حفلات ستالين تتعتع الرؤوس. انتحيت بمستر بيفن جانباً، وسألته عن التفاصيل فأخبرني القصة بكاملها على أساس أنني دبلوماسي ولا بدّ من أن حكومتي قد أطلعتني على التفاصيل، فتركت الحفلة وذهبت إلى السفارة وأبرقت لكم بنفسي، فدولتكم تعلمون أن سفارة سورية في موسكو مؤلفة من العبد الفقير فقط، أنا السفير وأنا مرسل الشيفرة وأنا مقدم القهوة)...

وضحك الجابري .. وقال:

- أنت تستحق يا عبد المطلب كل تقدير.. !

ومات سعد الله الجابري متأثراً بآلام وطنه، وكانت المكافأة التي نالها عبد المطلب هي تسريحه من وزارة الخارجية على يد حسني الزعيم الذي دشّن حياة الانقلابات في سورية، ودشّن معها منح المكافآت للموهوبين على طريقة مكافأته لعبد المطلب...

وعُين عبد المطلب في الدعاية.. وكانت مديرية متواضعة، فسرعان ما ضاقت به وضاق بها، وأصبح في الشارع يعرض مواهبه فلا يجد من يقدّرها...

من يومها بدأ عبد المطلب يعيش حياة القلق، حياة متمرّدة تشفق من وقائعها، وتتخاذل لدى عنفها، حياة أكلته وشربته ولم يأكلها ويشربها، حياة غنمته ولم يغنمها..

عاش عبد المطلب في روسيا، وباريس، وتجوّل في العواصم الكبيرة، ونعم بمباهجها.. ولأنه شاعر للشعر، وليس شاعراً للتجارة، طاف في بلاد العيون الزرق التي يحار الناظر إليها وإلى البحر، أهي انعكاس لزرقته، أم هو انعكاس لزرقتها.. بلاد الشعر الأشقر والقوام الأهيف.. بلاد النظافة والذوق والصدق.. وكانت له ذكريات مضمخة بالأحلام، ما أن يرويها حتى تسحر وتستهوي.

كنا نمضي معاً الليالي الحلوة في دمشق.. عبد المطلب الأمين، سعيد الجزائري، عبد السلام عجيلي، عبد الغني العطري، نزيه الحكيم، فؤاد الشايب... وكنّا نسير الساعات الطوال في عشايا الشتاء الموحش الكئيب، في شارع بغداد المقفر من الناس والرياح تعصف بنا وبأشجاره العارية الشمطاء، وكنّا نداوي كل هذا بشعر عبد المطلب.

وينقلنا عبد المطلب أحياناً إلى جناحي هواه وذكرياته إلى اسكندينافيا، حيث كان زورق أحلامه يسبح في لجة العينين الزرقاوين شراعه ، ومجذافه نشوان من خمرة الدعاب فتهزه الذكرى.

وكم لنا من ليال كنّا نقضيها على ضفاف بردى، نلتمس السلوى في صمت الليل.. وندفن الذكريات في وحشة الظلام.

حين أتذكر كل هذا الآن أدرك والمأتم معقود في كياني أن ما من ثروة في الدنيا تستطيع ان تعوّضني عن فقد صديق العمر..

إن الآلام المشتركة التي اعتصرناها معاً، والغربة المشتركة...

والآمال الواحدة التي حلمنا بها سوياً، والضحكات التي تقاسمناها... هذا كله يضيع الصديق... ساعتئذ يبدأ حزننا الحقيقي.. حزن هادئ ولكنه أليم..

كان عبد المطلب يجري في الحياة، وكنّا نلحقه... وحين نفتقده نعرف اين نجده، وما أن نجتمع حتى نغيب على اجترار الرواسب من ذكريات دمشق، وذكريات الشعر السياسي الذي يتقنه هذا الشاعر كأحلى ما يكون الإتقان... كان يضحك من نصائحنا الغبية ويحاول إفهامنا أن في حياته الكثير مما نجهله.. إن تشرّده له فائدتان.. الأولى أنه يعيش في عالم غير عالمنا حيث لا قيمة للوشاية ولا طعم في الأسنان من أكل اللحم البشري النيء... والثانية أن الذين يتحادث معهم وينادمهم لا يعرفون قيمة أدبه لهذا لا يتاجرون به.. وكنّا نقول له: أنت (دسيسة) على الأدب تسللت إلى الشعر لتبقي عليه أصيلاً دون تشويه. وكنّا نقول له ستموت قريباً إذا لم تتعود على حياتنا.. عندها يثور ويغادرنا وهو يقول:

(الف موتة ولا عيشة واحدة من عيشتكم التي تفتقر إلى فلسفة الضياع).

عمل مرة قاضياً في طرابلس الشام.. وجلس وراء المنصة وبرّأ سارق الرغيف لأن سارق الملايين لا يستطيع أحد أن يقبض عليه ليحاكمه..

سافر إلى الكويت حين كان المسافرون يصلون إلى هذا البلد فقراء فيعودون أغنياء.. ولكنه لم يستطع الإقامة هناك لألف سبب وسبب، وما أن يبدأ بسرد السبب الأول حتى نخجل من أنفسنا ونطلب منه التوقف لأنه أقنعنا بهذا السبب الواحد!

الست لغات التي يتقنها، وكمية المواهب التي تغلي في كيانه وشاعريته، وسخريته، كل هذا كان أعجز عن أن يخضعه للسير الوئيد.. كان يستعجل الرحيل لأنه سئم حياة لا يستطيع أن يحياها على هواه..

لو كان عبد المطلب شاعراً ولد في بلاد البشر لكان رامبو الشرق، ولكن أين شعره؟ وأين نثره؟ وأين مذكراته إنها موزعة في الصحف الأدبية والسياسية، القليل القليل منها انتشر بالرغم عنه، والكثير الكثير منها ضاع. لقد كتب على ورق ممزق وأقلام حبر (بالكاد) تتلمسها نظراتك، وبحروف هي أقرب (للكرشونية).. لقد تشرّد شعره نتيجة العدوى من قائله.. كما تشرّدت نكاته أيضاً.. ومع كل هذا تشرّدت السيرة والسريرة.

وتبقى الآن أمنية لأصدقاء عبد المطلب يأملون ان تتحقق، وهذه الأمنية هي جمع بقايا شعر عبد المطلب الأمين في ديوان، في كتاب، في نشرة.. وهذه المهمة يستطيع الأستاذ حسن الأمين شقيق عبد المطلب وصديقه والحاني عليه وأكثر المتألمين لفقده.. يستطيع تحقيقها..

فالذين عرفوا أي قلب يحمله حسن الأمين سيظلون يطالبونه بتحقيق أمنيتهم التي وإن كانت كبيرة، فإنها صغيرة على الوفاء للأدب، والإخلاص للشعر..

مات كما هو أراد

بقلم: أسعد شحاده

يوم عرفته.. كان جديداً عليّ ذلك الصنف من الرجال.. إنه واحد من الذين نلتقي بهم مصادفة ونبتعد عنهم بالمصادفة.. وبين معرفتنا بهم وابتعادنا عنهم مشوار قصير يزدحم بالعناوين.

وبالرغم من المرات القليلة التي جمعتني به فقد أثار عبد المطلب الأمين إعجابي ودهشتي.. إنه من الصنف الذي يبقى علامة استفهام كبيرة حتى بعد معرفته. فقد كانت في شخصيته ملامح كثيرة يصعب تحديدها.. أبرز ما فيه وجوديته.. كان نموذجاً وجودياً لإنسان يعيش حياته بطريقة خاصة جداً ويتعامل مع الأشياء بأسلوب فريد.. لم يكن لا مبالياً وعارفوه يدركون أن وراء ذلك الغموض أسراراً كثيرة ربما كانت وحدها سر ارتباطه بذلك الأسلوب الخاص في الحياة.

كان عبد المطلب كتلة من الظرافة[1] والشاعرية اللتين كان متورطاً بهما وكان الرجل يصرّ على الاستمرار والتوغل فيهما.. ومع هذه كانت سخريته

---

(١) طلب منه أحد المفلسين أن يقرضه مئة ليرة لبنانية، فيعيدها إليه بعد مرور شهر مضافاً إليها عشر ليرات، على سبيل المكافأة. فقال له الأمين: ما رأيك أن تقرضني أنت عشر ليرات فأعيدها إليك بعد شهر مئة ليرة !! (هاني)

تتناول الأشياء تداعبها.. تحاورها.. تثرثر معها ثم لا تلبث أن تغادرها مخلفة بضعة أبيات من الشعر تبقى الكلمة فيها ذات أبعاد وآفاق..

لقد كان عبد المطلب الأمين شاعراً مجيداً.. يقول الشعر ربما لأنه كان يجد في الشعر وحده متنفساً له.. ورفيق درب.. كانت جيوبه تزدحم بأوراق كثيرة.. كتب عليها قصائده التي لم تعرف القرّاء.. كأنه كان يستأنس برفقة القصائد.. بعدما أوحشته عوالم الزيف والكذب والتجارة...

عبد المطلب الأمين وحده اختار أن يكون هكذا.. وكان دائماً يرفض أن يفلسف اختياره.. اختار الشعر بعدما سعت إليه المناصب فارتدّ عنها.. تجاوز مواهبه ليسقط نفسه خارج دائرة الأحداث بعدما شعر برتابة المواقف.

عبد المطلب الأمين ابن المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين الذي عاش في دمشق وأحب دمشق وقال أجمل قصائده لدمشق وكان أول وزير مفوّض لسوريا في الاتحاد السوفياتي. مات وجيوبه تنتظر من يمد يده إليها ليقرأ القصائد.

مات عبد المطلب الأمين كما تمنى دائماً ان يموت.. بعيداً عن المناصب وبعيداً عن الأحداث وبعيداً عن جميع الأشياء التي لم يستطع أن يألفها..

مات عبد المطلب الأمين كما تمنى دائماً أن يموت.. مات كما هو أراد.. وبموته تفتقد شاعراً لا يعوّض.. فهو من الرعيل الذي نشهد رحيله بصمت.. وألم.

ذكريات عن عبد المطلب الأمين

بقلم نضال جواد الأمين

في أواخر العقد المنصرم من القرن الماضي وكنّا في مقتبل العمر، حيث كانت شخصية عبد المطلب الأمين قد بدأت ترتسم في ذاكرتنا منذ طلعتنا الأولى، حيث أسماعنا بدأت تلتقط شيئاً عنه، وللمصادفة كنّا لأول مرة نسمع عن الشعر والشعراء وعن السيد محسن الأمين وعن مؤلفاته.. أذكر أننا عايشنا حرب الخامس من حزيران بأحداثها ووقائعها، حيث ألّمت النكسة بالجيوش العربية وأول ما نسمع عن صحراء سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية لنهر الأردن... بعدها بقليل ذيع صيت عبد المطلب وأنه جاء من سوريا بعدما ملأت قصيدته عن نكسة الخامس من حزيران أرجاء المعمورة وتُذكر على كل شفة ولسان... ونحن أولاد الحارة بدأنا نستطلع الأمر لكي نتبيّن شيئاً عن عبد المطلب ونعلّل النفس بأن نطير فوق أسوار دارته العالية لنراه ونعرفه عن قرب ولم نفلح بذلك قط.. حيث كان يذهب إلى بيروت ويأتي بعد حين طويل إلى أن سافر إلى الكويت في العام ١٩٦٨ من القرن الماضي.. كنّا نتلقف القليل عنه وعن سيرته وعن أشعاره وأنه كان أول سفير لسوريا في الاتحاد السوفياتي السابق، وأنه يتقن سبع لغات، يتقنها أكثر

من أهلها... وذات يوم أحضر أخي الكبير ورفاقه نسخة من خطط جبل عامل للسيد محسن الأمين وأخذوا يتداولون بين أيديهم قصيدة الشاعر عبد المطلب الأمين وقد ألقاها في ذكرى الأسبوع لوفاة العلّامة السيد علي مهدي الأمين وكان ذلك في العام ١٩٦٠ من القرن الماضي ويقول فيها:

أبكل يوم طعنة وجراح وبكل بيت للردى أفراح
بالأمس شيّعت المروءة محسناً ولها على الحسن الزكي نواح.. إلخ

لم تطل رحلة عبد المطلب إلى الكويت كثيراً وعاد بعدها إلى شقراء.. فقد كان الأكبر منّا مجايلة قليلاً يجلسون معه ويسهرون ويقضون أمتع الأوقات هذا ما كانوا يأتون به عنه... إلى أن مرّت الأيام بعد ذلك بقليل وصار يخرج أمامنا ويلتفّ حوله الجميع كباراً وصغاراً ومن مختلف الفئات العمرية، وكان يسترسل في سرد الأحاديث المنوّعة والشيّقة التي تكاد لا تنتهي، وينتهي معها الوقت بسرعة إلى ساعة متأخرة من الليل، فقد كان يتحدث أحاديث جلّها من الواقع الذي مرّ به في سفراته وما يحصل معه ناقداً له بأسلوب ساخر ولاذع أحياناً كثيرة أو نكات من صناعة أسلوبه الأدبي الممتع والظريف بصدى صوته وضحكته الطويلة المعهودة، وكان سريع الإجابة والبديهة عن كل ما يجب أن يتناوله ويردّ عليه...

ذات يوم، وكنّا نقف معه عند الصباح وإذا بأحد أبناء العم يسلّم عليه بعد إلقاء التحية ويقدّم نفسه ثم يقدّم ابنه ليعرّفه عليه وانتظر منه جواباً حميماً يرفع من شأنه أكثر ليقول: إن هذا الشبل من ذاك الأسد.. بل ردّ السيد عبد المطلب فوراً.. نعم ابن العم ... إن البعرة تدل على البعير.

وأذكر تماماً بأنه أول من أطلق تلك المقولة الشهيرة بعد غياب الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وتسلّم مقاليد السلطة من بعده أنور السادات مباشرة، وبعدما بدأ يناقض كل تعاليمه وما أنجزه وحققه لشعبه وللأمة العربية جمعاء، تلك المقولة بأن أنور السادات صحيحاً بل أكيداً بأنه يسير على خطى عبد الناصر بالممحاة ليس إلا..

وفي بداية السبعينيات من القرن الماضي حدث الانقلاب الشهير في السودان ضد حكم جعفر النميري بقيادة هاشم العطا وبابكر النور حمد الله الضابط في الجيش السوداني وبدعم ومؤازرة من الحزب الشيوعي السوداني وكان بأن فشل الانقلاب وعودة جعفر النميري إلى السلطة بعدما كان في السجن، وشنّ حملة بلا هوادة على الحزب الشيوعي السوداني وقيادته واعتقال معظمها ومن ثمّ إعدام الأمين العام للحزب عبد الخالق محجوب مع زعماء الانقلاب والقيادي في الحركة العمالية والعالمية وزعيم النقابات العمالية في السودان الشفيع أحمد الشيخ، وحين سمع عبد المطلب بهذا الحدث ثارت ثائرته وحزن حزناً شديداً على هذا الأخير الذي كان يعرفه تمام المعرفة وتربطه به صداقة حميمة وعميقة، واسترسل يحدثنا أحاديث طويلة شيّقة وممتعة ونوادر قلّ نظيرها.

وفي العام ١٩٧٣ من القرن الماضي، حدث وأن دعا الحزب الشيوعي اللبناني إلى مهرجان حاشد وجماهيري في مدينة جبيل في النادي الحسيني وصادف أن ذهبنا معه من شقراء إلى هناك، وفي الطريق همّ عبد المطلب بقراءة القصيدة التي سيلقيها في المهرجان الخطابي، إلا أن الأستاذ أبو رضوان محمد الأمين الذي كان ذاهباً معنا استمهله وأن يتريّث قليلاً حتى نصل

ويلقيها أمام مسامع الحضور قبلنا، ولكن الشاعر لم يُعر الانتباه لذلك وعمد إلى إلقائها فور صعوده إلى السيارة واسترسل في إلقائها على مسامعنا ويقول:

شاخ النظام ورثّت الزعماء رخص الإماء ورخصهنّ غلاء

يا حارسي حصن النظام وسوره كالعنكبوت تهافت وحياء

سيدكّ هذا الحصن فوق رؤوسهم شمشون قد ولدت له أبناء... إلخ

أخذت هذه القصيدة من الجماهير الغفيرة وهاجت ثائرتها تصفيقاً وقبولاً مؤثراً وحاداً مما أثار غيض وغضب السلطات والأجهزة الأمنية يوم ذاك، وهمّوا إلى اعتقاله إلا أن رفاقه شعروا بذلك، وبغفلة عن هذه الأجهزة قد قادوه إلى الباب الخلفي للنادي الحسيني وأخذوا طريقاً له ولهم في الحقول المحاذية إلى أعالي ظهور عيناثا وجوارها بغفلة عن عيون الفضلاء، سيراً على الأقدام لأكثر من ساعة من الزمن، إلى أن عبروا إلى الطريق العام إلى محلة ما تعرف بصف الهواء واختفوا هناك إلى بيت الدكتور أحمد مراد.

في أواخر العام ١٩٧٤، أي في الواحد والثلاثين منه نعاه زهير مارديني في الصفحة الثقافية من جريدة النهار بما يلي:

يصنع البلبل خمرته.. يأتي ثمار الرمان.. يعرّيها في خامتها.. ثم يصدح ويطير.. ثم يأتي حباتها ينقرها ويغفو وينام ويصبح... ومن ثمّ يأتي حباتها ويصحو ويطير ثم يغرّد.

العمر عند عبد المطلب ثلاثة أبعاد: عرض وطول وعمق، فأما طول العمر وعرضه فلا شأن لي بهما فاهتمامي بالعمق.. وهكذا...

طيبي دمشق ثرى وطيبي محتدًا عبق الجنان على ثراك تجسّدا
وأشم تربك عاشقاً بل عابداً طفلاً بأحضان الأمومة وسّدا
طال الفراق وما سلوت ولا غفا ثمل بأنغام الوفا قد عربدا

رحل عبد المطلب في نهاية العام ١٩٧٤ ودفن في ١ كانون الثاني من العام ١٩٧٥ من القرن الماضي، في العام الأول لبداية ا لحرب الأهلية اللبنانية..



الرثاء النبيل في تأبين عبد المطلب الأمين

الشاعر: محمد الحريري - دمشق

حَمّلتكَ أنفاسي إلى أشجاني فاسْكن عذابي واثوِ في أحزاني
لحظاتُنا لم تفترق لمحاتُها لم تنقطع منها خيوط ثوانِ
وأنا وأنتَ ، على بساط ودادنا في كلِّ ما غرسَ الهوى غُصنانِ
ورَقُ الصبّا متهدل من حولنا في غمرة من ظلّه الفَينان
ولشَهْقةٌ منه طوالعُ صُبحنا ولزفرةٌ منه دُجانا الفاني
مابين بدء نهارنا وغُروبه قصصٌ تضـيء غريبة الألوان
وأنا وأنتَ حكايتان، على السنى وعلى دمشق السّحر مُشـرعتان
نجتاحُ شارعَها الكبير ونثني مُتوغلين بها إلى الأحضانِ
في ظلِّ أعماق الزوايا نلتقي وعلى زقاقِ وادعٍ خجلانِ
فكأنّنا روحٌ وحيدٌ ضمَّها جسدان أوجَسدٌ له روحانِ
ونسيرُ تدفعنا الخطى حَيرى فلا أدري مكانَك أو تُحسَ مكاني

حتى إذا ملّت سراها خطوةٌ — منّا، وحنَّ السَيرُ للاذعان
نأوي إلى مقهى يلملمُ ضحكنا — ونكاتنا من بارقِ الأذهان
وشوارداً من نبرات قصائد — تُضفي علينا نشوةَ اللّمعانِ
في (نجمة الصبح) العزاء لبائس — وبها ملاذُ التائه الحيران
ومَثيلها من شعرك السامي غزا — قلبي وأسلمهُ إلى الرَّيحانِ
وتروح تدعوني إلى نَرد نرى — فيه اختطاف فراغنا الوسنان
هل تذكُرنَّ صُراخنا من حوله — نُعدي حجارته إلى الرجحانِ
شَبَّهتُ فيه الزهرَ بالفكر الذي — يخبو ويلمع في رؤى فنّان
وبأن هذا الدهر يَلقفهُ الغنى — كالزّهرِ تلقفُ حَجرتيه يَدان
أما النقير، فَمُنتهى آمالِهِ — حبو إلى لُقَم وشمُّ أوانِ
زحف المجاعة مستمرٌّ في الدّنى — حتى تطأطيء هامة السلطان
واللقمةُ الكُبرى سيجنيها الملا — من كفّ مكتنز الجُنى ملآنِ
أقطابُ نيويورك يجرون الدلى — من خَلفهم، يَلهون بالأكوانِ
ولربَّ لمعة دمعةٍ من بائس — تمحو بريق الأصفر الرنّان

***

يا عبد مُطّلب، لياليك التي — عاشتْكَ تسأل عنكَ في تحنان
فلأنتَ فيها قصّة كُتبتْ على — ألق النجوم، وغَفوة السهران

وتر شدّدْتَ على الأسى لعبت به نقراتُ آمال ذوتْ وأمانِ
أمل بصدركَ عاصفٌ ألوى به صخرُ الخداعِ وقمّةُ البُهتان
فإذا رغابُكَ وهي زهرُ تنتهي في راحتي نجواكَ للذّوبان
فحملت وردتَك التي ذبُلت إلى مُفترٍّ كأس واصطفاق دنانِ
وسكبتَ روحَكَ في الكؤوس مجاوزاً سمَّ الحياة تلوحُ كالثُّعبان
أنضبت في الطغيان سيفَ قصائد رجَفَتْ بهنَّ فرائصُ الطغيان
وإذا غذا الموت الحقيقة وحْدهُ يا مرحباً بنضارة الأكفانِ
أهوى على خدر الضياع يعيشُ في مجد الذهولِ ورفعة الهذيان
فمتى يزول عن الحياة طلاؤها مابين صبغ كاذبٍ ودهانِ
وملامحُ الدنيا بقلب واضحٍ يهواهُ قلب الوحشِ والإنسانِ
يا عبد مِطَّلب وأنتَ بخاطري كفٌّ يرافقها كتاب حسانِ
عيناكَ في الكتب اعتلاقُ دائبٌ وَني الكتابُ به وليس بوانِ
لم تخفَ عنكَ منازهُ ومرافهُ في روض أفكار ونبعِ بيان
فإذا سُئِلتَ أجبتَ غيرَ مُصانعٍ وإذا أجبْتَ فلا سؤالٌ ثان
أشكو إليك الحسَّ في أيامنا وتبلُّدَ الأجفان والآذان
نكبو على أنَّ الطريق يسيرةٌ نعمى على أنَّ العيون رَوانِ
والحسُّ ليس لواحظاً ومسامِعاً بل شمسُ أفكارٍ ونهرُ معانِ

هو أن يطلّ العقلُ بعدَ طوافه زمناً على الإشراقِ واللّمعانِ
هو أن يشقّ عطاؤه جيلَ الحجى فيثور فينا ثورة البركانِ
ولأنت شبلُ أصالةٍ برّاقةٍ تزهو عليكَ بأسطع التّيجان

***

عبدَ الشّذى، هل تذكرنّ رسالةً منّي إليكَ وضيئة العنوانِ
أشعلتُ فيها الذكريات عزيزة عن شارع الحمراء يومَ سَباني
فأجبتني: قلبي بجلق عالقٌ بَردى يشدُّ جوارحي وكياني
بلدان بينهما العروبة تغتلي حتى توحّدَ سائرَ البلدانِ
فارقد على لبنان قبراً مُعلناً شوقَ الشآم إلى ذرى لبنان

***

باقون كالشمس

العلاّمة الشاعر: محمد حسن الأمين

خضراء ذكراك عمر الطيب تختصر   ضفافها الليل والأنسام.. والقمر
خضراء .. ريا الحكايا في تلفُّتها   مفاتن بشفوف الوحي تأتزر
لها على كل أفق صبوة وعلى   كل التماعة فجر موسم عطر
رفت فذاكرة الصحراء ألهبها   خصب على هبوات الرمل ينفجر
طافت بصدري.. فانداحت على حدقي   نعمى رؤاها وضجت في دمي صور
وراح يمطرني شجواً تلفُّتها   كما تنهد في غيبوبة وتر
أبصرت وجهك فيها وجه سابحة   بالضوء يقطر سحراً عريها الخفر
متوجاً باخضرار الغار مؤتزراً   بالغيم تحنو عليك الأنجم الزهر
تزهو وتخطر بين الشاعرين كما   يزهو ويخطر بين الأنجم القمر
كأنما القبر حين اخترته جسداً   أعياه أن تطفأ الأوضاح والغرر
فرحت تقطر ضوءاً عبر كل مدى   وراح عنك ظلام القبر ينحسر

آمنت بالشاعرين الملهمين على أعتابهم كبرياء الموت ينتحر
باقون كالشمس تفنى كل داجية ودأبها الضوء.. لا شكوى ولا ضجر

***

أبا القوافي أدار الوحي أكؤسها وعلّ حتى انتشى من خمرها الحجر
أسرجتها في الدجى للسامرين فما انطوى على مثل ما أبدعته سمر
ونجمة الصبح كم ناغيت وحدتها تبثها ما يجن الخاطر الغمِر
كانت لغربتك العذراء مؤنسة وكان يحلو لها في افقك السهر
وكنتما توأمي زهو يلفكما شأن المحبين في أبراده السحر
أبا القوافي العذارى ما استبيح لها خدر.. وما طامنت من زهوها الغير
سقيتها العمر لم تحفل إذا رويت أطال من بعدها أم قصّرِ العمر
لها بقلبك نبع لا انتهاء له وأكرم النبع ما في القلب ينفجر
شددتها بالذرى فالتفَّ مفرقها بالشمس.. فارتدَّ عن آفاقها البصر
ذلت لخفق جناحيها الرياح فما انتهى بها سفر.. إلاّ ابتدا سفر
وأنت في غمرة الإبداع مؤتلق الجبين بالألق العلوي منهمر
ترى الليالي بزاد أنت مبدعه وأنت بالظمأ المحموم مؤتزر
كالأنبياء عذاب الوحي زادهم ومن شموخ أساهم تورق العصر

***

يا فارس اللغة الخضـراء رفَّ لها　　على جديب الليالي هاجس عطر
لم يغترب في ظلام التيه موكبها　　وما تلون في أشواطها وطر
وما استبيحت على أعتاب طاغية　　إن الطغاة على أعتابها قبروا
وكنت تعلم أن الدرب موحشة　　فما أخافك درب موحش وعر
بل رحت تسرج نور الشعر في وطن　　أذل زهو رباه الحاكم البطر

***

أبا القوافي حملت الجمر في شفتي　　وجئت بالنار لا بالشعر ابتدر
على يدي وطني والنزف يرهقه　　والنار تمعن فيه وهو يحتضـر
موزع بين أشداق الذئاب على　　كل التماعة ناب راح ينتثر
رؤاه بالغسق القاني مخضبة　　وحلمه برخيص الترب منعفر
دام وينزف أمجاداً وألوية　　للحاكمين.. وللمستضعف الخور

***

على درب العفاة

الشاعر: هاشم الأمين

مهداة إلى روح أخي عبد المطلب

أعيدي ذكرهم طرباً أعيدي
شجون البين والشمل البديد
فلمّا يأنُ بعدُ لمستهام
سلوٌ من بعاد أو صدود
ولا رقأت على نأي دموعي
ولا بعدت على ذكرى عهودي
تمادت سورة الأحزان حتى
استطاعت من زمان أو حدود
فتحناني على وجد قديم
كتحناني على وجد جديد
ولهفة خاطري من خوف فقد
كلهفته على إلف فقيد
وصبري من أذى يوم قريب
كصبري من أذى يوم بعيد

يكلفني النصيح على شجوني
مقام العارف الفطن الرشيد
ويسأل حكمتي أين استطيرت
أناة العلم والخلق الجليد
وما جدوى المعارف والمعاني
إذا مرد الزمان على جحود
فانسج حكمتي درعاً هواء
وتعروني الحوادث من جديد
أعيدي ذكرهم سهد الليالي
صبابة مدنف وجوى عميد
وأشواقاً تهيم على الدراري
وآفاق الرؤى وشذى الورود
ونغمة صادح من غصن روض
تضج على الفضا أفراح عيد
وحسرة شاعر سلف تناءت
على نجواه أيام السعود
يطالع للوداع عرار نجد [1]
ويجلو للفراق ربي (زرود)
لعلّ على النجوم حديث وجد
ودود إذ يحن إلى ودود
وعلّ على الربيع ثمال عرف

(1) تزود من شميم عرار نجد

وفي وكناته ذكرى نشيد
أعيدي ذكرهم لحظات طرف
تطوف بجفنه رؤيا شهيد
دهته فجأة الأحداث تترى
جوحاً بالضياع وبالشرود
يقلب نظرة المدهوش فيها
وينقل خطوة الوجل الطريد
ويمسك من نيوب الغدر قلبا
سما لا بالحقود ولا الكنود
يسائل خطة الأحرار عنهم
وقد كظته أغلال العبيد
وينشد نفحة الريحان لهفاً
شريد مهامه وطريد بيد
أسمار النجوم هل العشايا
أواهل بالعهود وبالوفود
وهل نضر الرياض كما عهدنا
زواهر بالورود وبالخدود
وخلان الصفاء هل النوادي
مجالي اريحيات وجود
تنكرت الوجوه على غريب
وأقفرت الديار على وحيد
خذي من طلعة الغر الحواني

أمان الفاقد اللغب الشريد
وصوغي من جراح القيد لحناً
يرف دما على غض القيود
يطوف في سماء البيد يحدو
بشوق الظامئين إلى الورود
ويجلوا العبقريات الغوالي
على عرش الكرامة والخلود
تنزّى في العذاب وفي الدنايا
وتزجر بالمهانة والوعيد
على طغيان جبار عنيد
وفي شهوات مأفون بليد
تغني بالجراح وبالضحايا
وهزي الكون بالنغم المجيد
تهاليل الكرامة من حسين
ووتر الضاغنين على يزيد
تغني بالنبوغ تعاورته
حقيدة شانئ وأذى حسود
غذته بالمرارة كل كف
عقوق من تباريح حقود
أعيدي ذكرهم نجوى ولبي
حنين اليأس للأمل السعيد
ووسوسة النجوم على ليال

طوال في غمار الهم سود
على درب العفاة هيام شوق
وتيه مغاور وسرى صعود [1]
مشيت وفي عيوني ألف رؤيا
تطالعني على الدرب المديد
وصفر راحتي من كل زاد
طريف من تراث او تليد
فلا الغنم المرجى من عتيد
ولا الذكر المعظم من جدود
وخلفت الجمال لمبتغيه
فلست من الجمال بمستزيد
وما أنكرته يوماً جمالا
جلا سرّ الوجود على الوجود
بلى أنكرته تغريد بوم
وموعظة بأفواه القرود
كفى زيفاً بنا إنا طلبنا
نقاء البرء في خبث الصديد
وعشنا عيشة الحملان هونا
وجلجنا بتزآر الأسود
سقينا الصغر من خمر الأماني
فعج يدل بالعدد العديد

(١) العقبة الشاقة.

نلوم عدونا إن قد رمانا
بقارعة وشيطان مريد
وسام ديارنا غصباً وسلباً
وبهتاناً وخلفاً بالوعود
وأنفسنا لأنفسنا عدو
طغى أعدى من الخصم اللدود
حملنا وزرها من قبل (فُرد)
وكنّا ثارها قبل اليهود
سأصبر للحوادث ما استطالت
وأرضى خطة الخطب الشديد
وأرعاها حنيناً واحتساباً
مصارع فتية ولحود صيد
وأستجلي الربيع ظلال عطر
ضفت تجنو على تلك اللحود
قبور للصباح بها رفيف
وللأنداء نجوى من قصيدي

عبد المطلب في ذكراه

الشاعر: إبراهيم شرارة

بُحورُ شِعرِكَ ! ما الشطآنُ والجُزُرُ هل عند شقراءَ من أخبارها خَبَرُ
تريدني أن أرود الشمس أحملها على خيوط سراج زيته عكر
من عاذري؟ وذبالات المنى نضبت وليس ينبت في بستاني العذر!

***

أي الشواهق أعلوها وقد عجزت عنها النسور وأعيا همتي الوطر
أي البحار أدانيها، وقد هدرت رياحها، وانتحى بالمبحر السفر
لسوف يبقى جناحي، لا قوادمه قديرة والخوافي عافها الصغر
وكل أشرعتي الزرقاء عاجزة ويلعق الوهن مجدافي وينكسر
مراكبي، ومجاديفي، وأمنيتي تغالب الموج، والشطآن تنتظر
وزهو أجنحتي، والريح تلطمها تصارع النار والأشواق تستعر
لسوف أطعم نفسي بعض غصّتها وأطعم الشعر ما غصّت به الصور!

على الجنائن من تفاحه ثمرٌ ... وفي الأصائل من أقماره قمر
لسوف يولد في الأوتار أغنية ... حنونة لم يوقع مثلها وتر
وسوف ينبت في الأزهار سوسنة ... طرية يتشهي عودها الزهر
والفيء والغصن والأطيار ما لعبت ... بريشها نسمة أو بلّها المطر!!

***

قلَّ الكثير فما نصطاد قافية ... إلاّ وفي يده ألوانها الكُثر
فمرة تزدهي بيضاء لاعبة ... على خدود الأقاحي حين تزدهر
ومرة يتحدى السقمُ وجنتها ... فتسحرٌ لها وجناتها الصفر
ومرة سل شفاه الورد هل شربت ... رحيقها، ودم العشاق يعتصر
وخلِّ كل العناقيد التي نضجت ... على الغصون وشاق العاصر الثمر
حباتها أترعت خمراً وما سكرت ... والعاصرون، وأرباب النهى سكروا!

***

أنا المنهنه ما خمري وما قدحي؟ ... أنا المغرد، ما غصني وما الشجر؟
عشقت حتى كأن العشق أتلفني ... وذبت فالوجد لا يبقي ولا يذر
لكنني والقوافي من أخي (حسن) ... مازلت أعرى وأُكسى والمنى وبر
طفلاً حبوت إلى الأشعار أرضعها ... ولو تصدّى لهامي الشيب والكبر
فمن (أبي محسن)[1] كم صدت قافية ... تقاسمتها لهاتي والألى شعروا!

***

(١) هو الشاعر الفقيد.

غنّيت عامل في سري وفي علني ... ولذ لي في هواه الورد والصدر
غنّيته فأجازوني[1] ورحت على ... مراتب المجد أعلوها وأفتخر
وأخوتي يلعقون الموت أغنية ... ونشرب الغدر من كأس الألى غدروا
فكيف أنعم من شعري بأيسره ... وقومي اليوم فيه شدهم عسر
أجازني المال عن شعري، وأكرمهم ... عزّ الشهادة فهي المجد والظفر
دعني أمت مثلما ماتوا فأوسمتي ... أمام أمجادهم كالوهم تختصر!
لي وقفة في ذرى (شقراء) مشرفة ... على النعيم الذي توفى له النذر
مهد المروءات مهد الساهرين على ... صحائف العرب والتاريخ مزدهر
شقراء شمس الألى دارت شموسهمو ... ونال محمد سناها البدو والحضر
شقراء، أي نضار ضن مالكه ... به وقد قلبته كف من خبروا
ما شهقة الماس إن داعبت قافية ... أو قهقهت ضفة أو سلسل النهر
أنا اغتنيت بها، قبّلت تربتها ... كما يقبّل من زوّاره الحجر!

***

وربّ جرح أسال الشجو من كبد ... لا تعرف الشجو لولا أنه الكدر
سرى إلى مهجة ترتاح في (حسن) ... وتستظل بنعماه وتأتزر
على (أبي محسن) شبت مجامرها ... وفرقة الأخ همّ ليس ينحسر

---

(1) إشارة لجائزة شعرية نالها الشاعر.

أنا الخلي وأشواقي ممزقة فكيف حال شجي أهله هجروا
(كمحسن) راود الفصحى وقلبها وراح ينثر حيث العلم ينتثر
وجد في عصرُ الماضي يراعته ما ملّ منها وملّت ذاتها العصر
حتى أقام جديداً فوق هامتها كما يقيم السنا والليل معتكر !!

***

إن يحسدوك فللأحياء ما حسدوا أو يجحدوك فقد شاءوا وما قدروا
يغار كل هجين قصرت يده إذا استطاع أصيل أو عدا المهر
يا دوحة سمقت في الدهر منبتها من هاشم وأفانين العلا خضر
أمام أبوابكم أوقفت راحلتي أرجو منالاً به أزهو وأفتخر
وآخرون لأبواب العبيد سعوا يرجون مالاً فأغنى المال وافتقروا
وقمت من عثرتي والعز من إربي وذل قوم بأذيال الهوى عثروا !!
سلْ جبهة عفرت في كربلا بثرى تغار منه الدراري أنها الحفر
ما زال طيب الشذى يسري بانملتي لما مسست ضريحاً مسّه اليُسر
شمّوا طيوب حسين والأباة، فما يغنيكم الشم عن سعي ولا النظر
طوبى لأشياعه، والمؤمنين به وألف طوبى لمن في ظلّه قبروا!

***

الله أكبر دوّت في مآذننا
هي البشائر طافت أو هي النذر
نبوءة جدك المختار قام لها
ونزّلت في حرّاء الآي والسور
قل للذين ادعوا كبراً ومعصية
هم الدعيون ما شالوا وما كبروا !

***

شقراء أي القوافي أنتقي، ويدي
غصّت، وفاضت بها الآثار والسير
لآلئاً تشتهي الأصداف لؤلؤة
منها وتخجل من أصدافها الدرر
هنا أفاقت بطون الكتب مشرعة
بها العمائم والأقلام والفكر
كمحسن والمصابيح التي سطعت
فنوّرت من سناها الأنجم الزهر
في كل يوم كعرس الشمس نقرأها
رسائلاً، ثم يذوي في الدجى العمر
ونحن نمضي وتبقى الشمس عالقة
على الضحى والضحى يجري وينتشر
وأنت ما الشمس، ما أعراس عودتها
إلى الجفون التي أودى بها السهر
فشعرك الصبح يصحو من مراقده
والليل يهدأ والسمّار والسمر
إن كنت غرّة هذا العرس في بلدي
فعرس هذي الدنى أشعارك الغرر

***

يا عندل الشعر

الشاعر: إبراهيم بري

شقراء.. أين رجال الفكر قد رحلوا ... أين الملائك في ناديك والرسلُ؟
توقف الوحي، سلك الأنبياء وهى ... أم لا يزال بسلك الله يتصل؟
بك انتقلنا، وعطر الأهل يرشدنا ... كأننا بربوع الخلد ننتقل
إذا احتفلنا بلقياهم، فلا عجب ... إن الطيور بلقيا الفجر تحتفل
كان الخلود ربيباً في مدارسهم ... لم يرحل الخلد إلاّ عندما ارتحلوا
قوم، إذا غرسوا في الطرس ريشتهم ... توافد النحل.. سال الشهد والعسل
خطّوا لنا أحرفاً شعّ اليقين بها ... حتى لتحسب أن الطرس يشتعل
يراعهم، لم يكن لوحاً، ولا خشبا ... بل مروداً فيه عين الدهر تكتحل
فكل شاردةٍ من خط أنملهم ... فيها لنا منهج.. فيها لنا عمل
جرّوا على الأرض أذيالاً مطهرةً ... لم يخلُ من طيبها سهل ولا جبل
وكلّموا الغيب، ناجته ضمائرهم ... إن الغيوب لهم يصغي ويمتثل
المعجزات استجابت حين ناشدها ... أبوهمُ.. رتبة يرقى لها الرسل

بلمحةٍ نظرت عين السماء إلى خشوعه، وهو في المحراب يبتهل
فأومأت لخيول الريح فانطلقت وللغيوم، فجاءت وهي تنهمل[1]
فتشرب الأرض من ضرع السماء ندى وتستحمُّ القرى، والحقل يغتسل
تلك الوجوه، توارت بعدما اكتمل وللبدور خسوف حين تكتمل

***

يا عندل الشعر، صوت الشعر مختنق فلا هديل، ولا شدو، ولا غزل
ولا القوافي التي نامت براعمها على جفونك، منها الوحي ينغزل
كأنما أدركت، أن النهار نأى عن أفقها، فاعتراها اليأس والملل
تبكي.. لها الحق أن تجري مدامعها على الهزار الذي أودى به الأجل
تلك الليالي التي سامرت وحدتها أمست على قبرك المحزون تنسدل
وشعرك العفّ، ما أعلى تصوّفه في جانب العشق، يبدو الطهر والخجل
فالخلد والأزل الباقي له احتضنا أكرم بشعرٍ حواه الخلد والأزل

***

يا عندل الشعر حسب الشعر أن له سلكا بعاطفة الإنسان يتصل
إليه تنطلق الأرواح لاهثة فهو السبيل لمن ضاقت به السبلُ
أبناؤه نحن، عشنا في رعايته منّا الجفاء، ومنه الصفح والقبل
تحية لك من صحب أهاب بهم صوت الوفاء، فلبّوا الصوت وامتثلوا

***

(١) إشارة إلى صلاة الإستسقاء التي قام بها السيد محسن الأمين.

عبد المطلب الأمين في المؤلفات العربية الحديثة

عبد المطلب الأمين
في كتاب وجوه ثقافية من الجنوب[1]

بقلم: محمد علي مقلد

أحد الذين عرفوه عن قرب، حين طلب إليه أن يختار لعبد المطلب من بين مواهبه لقباً، راح يحصي: الشعر، الشريعة، القانون، السياسة والحقل الدبلوماسي، النقد والصحافة... الخ، ثم اختار له لقب المفكّر، وأردف: نعم لقد كان مفكّراً، منظّراً، بل لقد كان مجتهداً، وربما كان أحد كبار المفكّرين، أحد أدمغة سوريا في أيامه، مع أنه لم يتخصص في ميدان معين ولم يحجز ثقافته في حقل واحد من الحقول.

أحد أصدقائه السوريين قال فيه: (كان عبد المطلب نموذجاً فريداً للمواهب المتجمّعة في شخص) وقال (نحسّ فيه أن ما فقدناه لا يعوّض).

وقال عنه حسن شرارة: (يوم يولد تولد دنيا جديدة لا تخوم لها ولا حدود... ويوم يموت، تموت طيوف إبداع وأدوات خلق ومفاتيح رؤى ... يموت الفكر الحالم المتوقّد... والوجدان المتفتّح... تموت الطيوف والرؤى).

(١) من منشورات دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

ولقد قيل فيه الكثير وأجمعت الأقوال دون استثناء على أن عبد المطلب شخص هفت إليه الأسماع وانشدت إليه الأذهان وكانت تميل القلوب حيث يميل.. والذين عرفوه كان الواحد منهم في حالة دائمة من الانتظار إلى أن يأتي عبد المطلب.

على أن لكل لقب، أي لكل موهبة، ولكل وظيفة نوعاً من العلاقة مع الناس، وإذا تنوّعت وتمايزت علاقات الشاعر والقاضي والناقد والصحافي والسياسي فلأن نافذة الشاعر على جماهيره هي نافذة صاحب الموهبة والشفافية والخيال ومن خلالها يحكم على الشاعر أنه يرى ما لا يراه الآخرون، وبصره يخترق الحجب ولسانه يعزف على أوتار القلب...و... و... و...، والصحافي أمام جماهيره قابض على السياسة دون أن يغرق فيها ملكة الفضول عنده كسلاح الهندسة في الجيوش، يتبعها على الخيط ويعود من الكواليس ليجد الآذان في انتظاره... شأنه شأن الشاعر يعرف ما لا يعرفه الآخرون، أو على الأقل، هكذا كان شأنه منذ عقدين وما سبق.

والقاضي، في قلمه اللحظة التي يميّز فيها بين الأسود والأبيض الجريمة والبراءة، السجن والحرية، وذاكرته خزانة لغرائب الناس ومساكينهم، أشرارهم وعقلائهم، وهو جزء من السلطة محاط بمهابتها، ينهار لقبه إذا انهارت، ولكن إذا قويت وتماسكت فويل لمن يقع فريسة القانون...

والسياسي كما قال الشاعر: واحد يملك الشرفات وآخر يملك الحبال، واحد يملك اللآلئ وآخر يملك النمش والتواليل... واحد السفن وآخر

الأمواج... ولكل منهما طريقه إلى القلوب ولكل منهما موقع وأثر، واحد يجيب الذين يسألون: كم الساعة الآن... والآخر يعرف كم ستكون الساعة... واحد يصنع زعامته بين الرؤساء والوزراء والسفراء ويصفع بها وجوه الناس وأحلامهم، وآخر يمشي على خط طويل يمتد بين الحي الشعبي أو المدرسة أو المعمل وبين ساحة واسعة اسمها حركة التحرر، ويختار حيث يستطيع موقع الزعامة أي القيادة ويمنحها للذين ينضحون عرقاً ونضالاً..

والناقد في لغة الحروب مثل القنّاص يصوّب من بعيد، يصوّب عبر نافذة ضيّقة، باتجاه الناس فيطلّ عليهم (بالمفرّق) بينما السياسي أو القاضي... (بالجملة).

... وكيف إذا اجتمعت هذه الألقاب والصفات والوظائف والمواهب في شخص واحد، وكيف إذا كان هذا الواحد عبد المطلب الأمين. أجل هو نفسه الذي حشد في داخله سياسياً وقاضياً وصحافياً وشاعراً وناقداً ومحامياً وغلّف هذه الجوانب ووحّدها وصهرها وأخرج منها شخصاً ليس بالقاضي ولا بالشاعر ولا بالمحامي ولا بالسياسي ولا بالصحافي... بل هو من كل واحد من هؤلاء زبدته وقد تقمّصت إنساناً يتقن ترجمة معارفه ومواهبه بالمرح الدائم والنكتة المبتكرة.

وقد يكون مفاجئاً للبعض اعتبار جانب المرح وإتقان فنون الضحك والدعابة اللطيفة والفرح الجاهز دوماً والمستخرج دوماً من أي شيء، من أية وظيفة، من أي موقع أو موقف أو شخص أو حدث أو خبر أو حركة... أهم جوانب شخصيته، أجل أهم ما في عبد المطلب موهبته في تجميع المواهب

وموهبته في توزيعها على الناس عبر أقرب الطرق وأسهل السبل وأكثرها إمتاعاً... قد نجمع على احترام عدد من الأشخاص وعلى محبتهم لكننا لا نحبهم ولا نحترمهم بنفس المضمون وعلى نفس الطريقة، وقد تكون أساليب تعبيرنا واحدة وأدوات تعبيرنا واحدة لكننا حيالهم كمن يعزف تنويعات على آلة موسيقية واحدة... أي نوع من العزف كأنه عبد المطلب؟ كلما وجهت هذا السؤال لأحد ارتبك لأنه لا يحسن اختصار عبد المطلب بالكلام إنه شخص لا يجوز اختصاره.

أراني أمدح عبد المطلب الأمين أكثر مما أقدّمه أو اعرّف به، إنني في ذلك أترجم مواقف الذين سألتهم عن عبد المطلب. كلهم أجمعوا على أن من الطبيعي بل ومن الضروري أن يكون موقع عبد المطلب أفضل مما كان... وان يكون دوره أكبر مما كان، وأن تكون مكانته الرسمية أكثر رسوخاً وبروزاً وشهرة وتأثيراً...

كلهم دون استثناء اتفقوا إذن على أمرين:

- الأول هو أن إمكاناته ومواهبه كانت كبيرة وكبيرة جداً.

- الثاني أن موقعه في تاريخ بلاده لم يكن موازياً لتلك الإمكانات.

أما إن إمكاناته كانت كبيرة ومتعددة فذلك أمر لا شك فيه، كما إنه لا شك في الدور الكبير الذي كان لنشأته في بيت ذي مكانة في تاريخ جبل عامل وبلاد الشام وفي تاريخ الفكر الشيعي الحديث، عبد المطلب هو ابن العلامة السيد محسن الأمين وهو من هو في المجال الديني والفكري والسياسي، إنه أحد المراجع الكبرى في زمانه في الدين كما في المواقف الوطنية.

وانطلاقاً من هذا المنشأ تهيّأت الظروف لعبد المطلب الأمين كي يكون في عداد الرعيل الأول من المتعلمين والذين تابعوا دراستهم (حمل إجازة في الحقوق عام ١٩٣٩) وقد أتقن إلى جانب العربية الفرنسية والإنكليزية والروسية والفارسية وأتيح له أن يتخرّج من بيت عريق بالثقافة تخصص في جانب مهم من التراث التاريخي والديني...

على المستوى الثقافي العام استطاع عبد المطلب إذن أن يستفيد من منشئه الأكاديمي والبيتي والوظيفي ليتكوّن في داخله جانب من شخصية رجل الدين المحدّث، العارف بشؤون الأولياء والصحابة الناقل لأخبارهم وسيرهم، الملم بشؤون القرآن وتفسيره.. إلى آخر ما يوفره الجو العام في بيت العلاّمة السيد محسن الأمين... وليتكوّن في داخله نموذج المثقف الجديد الذي لايكتفي بالتراث بل يميل إلى حضارة الغرب ويطّلع على بعض آثارها من خلال اللغات التي يتقنها..

وليتكوّن في داخله نموذج يجسّد المجتمع الجديد الذي يخطو من العلاقات الدينية الإقطاعية إلى العلاقات المدنية الرأسمالية.

وهكذا بدأ عبد المطلب بثقافته نموذجاً للجديد الذي بقي على صلة وثيقة بما كان سائداً في الذاكرة الشعبية من التقاليد والعادات والأفكار والقيم.

وعلى المستوى الأدبي لا سيما الشعر كان عبد المطلب، شاعراً، بل لقد كان واحداً من الشعراء الأربعة أبناء السيد محسن الأمين: وإخوته هاشم وحسن وجعفر.. نعم كلهم في بيت العلامة ينظمون الشعر،

وعبد المطلب عرفت عنه غزارة إنتاجه فكان الشعر يتدفّق منه لأنه قابض على ملكة الكتابة الفنية ممتلك لأدوات تلك الكتابة وأولها اللغة وفوق ذلك بل وفي أساسه موهبته وحساسيته...

يذكر من يعرفه أنه كان يكتب شعره على الهامش الأبيض من صحيفة بين يديه أو على علبة السجائر، يكتبه في الأماكن العامة، في سيارات النقل وأحياناً كان يكتب وهو على كرسيه وأمام الطاولة. كان بمقياس ما، حسب إحدى المجلات السورية، أشعر الناس.

على مستوى القانون والشريعة، فقد عيّن لسنوات قاضياً وعمل لسنوات أخرى محامياً... وكان يأتيه طلبة العلم في القضاء أو في المحاماة، أحد هؤلاء وكان مثل غيره من المعجبين كان يعتبره دائرة معارف... هذا هو شأنه في القانون المدني، وكذلك كان في مجال القانون الديني أو الشريعة ومراجعه في ذلك الكتب الإسلامية وتاريخ أهل البيت وهو من المتأثرين بهم والمعجبين.

على المستوى السياسي إمكاناته أيضاً كبيرة ومواهبه كبيرة. فعلى الصعيد الرسمي عمل عبد المطلب سفيراً لسوريا في موسكو وكان سفيراً ناجحاً بشهادة مسؤوليه... يروي زهير مارديني بعض الحوادث التي تؤكد ذلك (مع الجابري رئيس الوزراء) وقيل إنه أحد مؤسسي وزارة الخارجية السورية... وعلى الصعيد الشعبي عرف بمواقفه الوطنية الدائمة دون خوف وبلا حساب لأية ردة فعل... من القضايا المطلبية، إلى القضايا السياسية والموقف من السلطة والرؤساء والوزراء، إلى القضايا القومية والموقف من القضية الفلسطينية والوحدة العربية... الخ. كان لعبد المطلب مواقف وطنية معروفة في كل مجال...

وأخيراً وعلى مستوى الكفاءات الشخصية والمواهب والمزايا الذاتية يجمع الذين يعرفونه على أنه إنسان حاد الذكاء، كثير الاستقامة والصدق، كثير التواضع بارع في تكيّفه مع جميع فئات المجتمع من الفلاحين وأبناء الريف إلى الدبلوماسيين وأجواء الارستقراطية... وإلى جانب ذلك كان يمتلك مهارة فائقة في صنع المرح وابتكار الضحكة واستحضار النكتة وكان لايوفر، في ذلك، أي شيء، أي شيء، وفي أساس كل ذلك قدرة على الاستيعاب مدهشة.

هذه الإمكانات الكبيرة لم يكن لها ما يوازيها على المستوى الرسمي. فحيث كان من المفترض بهذه الإمكانات أن تدفع باسم عبد المطلب إلى سجل الشهرة كواحد من المؤثرين والفاعلين في تاريخ بلادهم السياسي والثقافي والأدبي لم يتوفر لهذه الإمكانات والطاقات ما يدفعها نحو وتائرها الأخيرة بل، وعلى العكس من ذلك منيت هذه الإمكانات بمن لا يحسن تقديرها ويدأ عبد المطلب يغرّد خارج سربه منذ ولادة أولى الانقلابات في هذا العالم العربي على يدي حسني الزعيم... فمع مجيء هذا الرجل انقطع النشاط الدبلوماسي وتضاءلت احتمالات تجدّده.

تذكر المكتبات والمطابع، ويذكر القرّاء اسم بدوي الجبل، اسم نزار قباني بينما بقي عبد المطلب خارج التداول مع أنه عاش معهما في فترة واحدة، واشتغل مع بدوي الجبل مثلاً في حقل التعليم في العراق، وربما كان في أحد جوانب العمل الفني أغزر نتاجاً... هكذا شأنه في ميدان النقد وفي ميدان الصحافة وفي ميدان الفكر، في التشريع، في الحقل السياسي... نتداول اليوم بعض شعره الذي جمعه له شقيقه الأستاذ حسن الأمين ونندفع إلى الاعتقاد

أن ما يحكيه عنه شعره لا يوازي ما يتداوله البعض ممن عرفوه بل وندفع هذا الاعتقاد قليلاً إلى الأمام لنرى بينهما هوّة لا يردمها إلاّ البحث الجاد والمعمّق في تفاصيل عبد المطلب مبتدئين من دمشق حيث ولد ونشأ ودرس وتعلّم وتخرّج حاملاً إجازة في الحقوق، وبالتحديد نبدأ من بيت العلّامة السيد محسن الأمين وننتهي في شقراء، قريته الجنوبية معرّجين على الميادين التي عمل فيها: سفيراً لسوريا في موسكو، معلماً في دار المعلمين في بغداد، موظفاً في وزارة الخارجية السورية وواحداً من مؤسسيها، قاضياً في لبنان، محامياً في الكويت، صحافياً في صحف دمشق بتوقيع القاضي الفاضل، وفي جريدة النداء في بيروت، موظفاً في وزارة الدفاع (رئيس قسم التوجيه) في سوريا حتى النكسة ١٩٦٧ ... وما تبقى من حياته قضاها في بيت متواضع في منطقة النهر في بيروت وفي بلدته شقراء.

يستوقفنا في عبد المطلب الأمين أنه كان قاضياً ومحامياً وصحافياً وناقداً وسياسياً.. الخ، على صورة ابتكرها لنفسه وعلى مثال يجمع الفرادة مع ما في الفرادة من جوانب التألق أو جوانب الإنكفاء. وإذا لم يكن الشعر أبرز مظاهر هذه الفرادة فإنه نموذج ونتاج لشخصية تكوّنت خارج هيمنة الطراز السائد. كتب شعراً كثيراً ولكن صحف زمانه ومجلاته كانت خلواً من أي بيت أو أية قصيدة من قصائده، كتب كما لو كانت الكتابة عنده فيض لا يرد عطاؤه وكما لو أن الشعر عنده عمل عادي وطبيعي كالتنفس لا يستوجب اهتماماً كونه، بالنسبة إليه، عملاً تلقائياً جاهزاً للممارسة على الدوام.

إن بعض المقاييس الفنية تمنحه بامتياز صفة شاعر في وقت تلجأ مقاييس أخرى إلى التقليل من أهمية شعره. فهو من جهة قابض على مجموعة من

العناصر الضرورية للإنتاج الفني ومنها لغته التي لا شك بتملكه لها اطلاعاً على التراث الديني، تراث أهل البيت، التراث الشعري القديم ومن عناصر الإنتاج الشعري المستوى الفكري والثقافي الذي تمتع به والذي قال عنه أحدهم إعجاباً: إنه دائرة معارف، ومنها وضوح الموقف من الأحداث ومن القضايا ومن المواضيع ومن العلاقات، وقد كان في هذا المجال صاحب موقف لا يتأخر عن إعلانه مهما كانت الظروف معاكسة.

أما مواقفه من الحياة والموت والحب والزمن.. الخ، فيمكن استخلاصها مما توفر بين أيدينا من أشعاره وكذلك مواقفه من القضايا السياسية الوطنية والقومية والاجتماعية.

الحياة كلها لم تكن في نظره إلاّ محطة، لم تكن هدفاً لم تكن إلاّ إضافة كمية ونوعية على التاريخ، فقيمتها إذن في حجم ما تضيف لا في حجم ما تأخذ:

ودروب الحياة مهما استطالت ... هي في خطونا الملحّ دروب

أو:

تضاءل العمر وانهارت مهابته ... حتى استحال تساجيعاً وأوزانا

والحياة من هذه الزاوية لمح من الحوادث تتراكم بتناقضاتها وتتعاقب تفاصيلها ليضيع العمر بين هذه التفاصيل:

تبّاً له الزمن الواهي فمر بها ... مر الكرام: عيون أوصدت وفم

في حياته اليومية، في تفاصيل العلاقات الاجتماعية كان ضاحكاً مرحاً وفي شعره وجه آخر لهذا الفرح الحياتي. في شعره كآبة ويأس واشمئزاز ونفور وقرف... نفس الأشياء التي يترجمها ضحكه ونكته امام الناس كان يترجمها في شعره شكوى وتذمراً، المقاييس المختلّة بل القيم المختلّة أضحكته وأبكته في آن معاً. يقول في قصيدة:

إلى أين يمضي بنا ركبنا عنيفاً لجوجاً على عمرنا
وحتّام يعصف فينا القضاء وتودي الرياح بآمالنا
أكنّا من الكون ألعوبة وهل أبدع الكون إلاّ لنا
ومن أبدع الكون ؟ حاشا الإله أيهوي إلى لهو أطفالنا
وحتى الصغار إذا ما لهوا ففي لهوهم دفقات المنى
ونحن الكبار بآمالهم صغار بخيبات آمالنا
صغار لأنّا بعرف الحياة نفلسف أسفاف أوهامنا
وتزعم أنّا كبار النفوس ولكن واقعنا خاننا
ومن ساقني للنفاق الدني على النفس مشكلتي أم أنا
ومن ذا يجيب على سؤلنا أصمت المقادير أم صمتنا
مللنا انتظار الجواب المريب فكنّا الجواب على سؤلنا

إن تراكم هذه التساؤلات هو بحد ذاته دليل على شكوى داخلية عميقة: إلى أين؟ وحتّام؟ أكنّا .. وهل ؟ ومن ؟. .

ويختم أبياته بخيبات الأمل وبإسفاف الأوهام وبالانتظار الممل.

في قصيدة أخرى نظمها كما يبدو في أواخر حياته يحشد عدداً من المفردات يكفي مجرد استعراضها للتأكيد على انزعاجه الشديد من القيم المختلّة تلك:

ضلال العمى وضلال البصر وحمّى الحلال وحمّى السفر
ودفء الضياع ودفء السكون وجود التفاهة في المنتظر
وشح المعين وبذل العفاء وما في المنى من قصور النظر
وما زخرف الغيب من موحلات وما بعثر اليأس من مدّخر
وما كوم العجز من شامخات وما خرّب الحسن فيها عمر
وما دنّس الطهر من طاهرات وما صوّف العهر فيمن عهر
بغاء العفاف صراخ السكون جفاف العطاء ومحل المطر
وهذا العواء الرتيب النشاز وهذا العزوف الشريد الفكر
وهذا المتاه السديد الدروب وهذا الفراغ البليغ العبر
وما بين هذا وهذا وذا تمادى المتاه وضاع العمر

على أن هذه الأجواء المفعمة بالتساؤلات لم تشكّل كما عند الرومنطيقيين مثلاً مرضاً اسمه الهروب مما قد يعترض الإنسان من مشاكل والاحتماء بحصن الأنا والذات والانكفاء إلى عالم داخلي باطني صوفي تأملي...

لقد كان عبد المطلب يرى إلى الواقع بعين ثاقبة ويحسن تشخيص الداء من أعراضه وتدفعه جرأته إلى إعلان موقفه، وموقفه كان دائماً منحازاً

إلى شعبه إلى المظلومين والمستعبدين في كل زمان، منحازاً إلى تلك القوى المناضلة من أجل تحرير بلادها وتحرر شعوبها من صلف الحكام واستهتارهم وامتهانهم لكرامات الناس وأعراضهم وأسباب عيشهم، منحازاً إلى أهل البيت وشعره ينضح إعجاباً بهم وتمسّكا بتاريخهم وتمسّكهم العنيد بقضية ما زالت حتى اليوم تقبض على هواجس بعض ذوي القربى والسلالات. منحازاً إلى الخمرة والكأس والندامى بما تشكله بالنسبة إليه من باب واسع نحو الحرية، منحازاً إلى القضية القومية، قضية فلسطين مستشرفاً مستقبلها منذ أيامها الأولى... وربما بسبب مواقفه الواضحة تلك عاش عبد المطلب حياة سمّاها حياة التشرّد وحياة الغربة:

في أي صقع أستقر وأسكن — ولأي ظل أستريح وأركن
ألف السرى قدمي فما يحلو له — إلاّ التشرد فهو شرس أرعن
من كل أرض في نعالي غبرة — ولكل ريح في ثيابي مسكن
الليل بيدائي على ظلمائه — تاهت خطاي وضاع ما أتبين

والغربة تلك هي نفسها التي شعر بها المتنبي يوماً حين قال:

ما مقامي بأرض نخله إلاّ — كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله — غريب كصالح في ثمود

إنها الغربة نفسها لأنها غربة أصحاب الإمكانات الكبيرة والطموح الكبير والآمال العريضة الذين يصابون بخيبات أمل من واقع لا يساعدهم ويقف فوق ذلك موقفاً اعتراضياً من مواهبهم ومزاياهم. وإلاّ كيف نفسر

إذن شخصاً بإمكانات عبد المطلب ومنزلته كان يسكن غرفة متواضعة في أحد الشوارع (المتشابهة) من منطقة النهر في بيروت، وفي تلك الغرفة زاره دبلوماسيون عرب وأجانب؟

قلنا إن عبد المطلب كان يمتلك الأدوات اللازمة والعناصر الضرورية ليكون شاعراً كبيراً، امتلك اللغة ووضوح الموقف والموهبة وغزارة الإنتاج... الخ. قال الدكتور حسين مروة في ذلك: (يملك العدة الكافية، بل الغنية، لدقة الاختيار وبراعة الاستصفاء، ثم لإحكام البناء الشعري وإتقانه). وفي مكان آخر يشير الدكتور مروة إلى (امتلاكه، أي عبد المطلب، الوثيق لكل أدوات اللغة الشعرية وقواعد النحو والعروض).. وفضلاً عن تملكه لتلك الأدوات والعناصر كان بإمكانه أن يجيّر موقعه الاجتماعي والسياسي كسفير ومنشأه في بيت السيد محسن الأمين ويستعين بهما لكي يشيع شعره ويدفعه إلى التداول، لكنه لم يفعل ذلك واكتفى بأنه أنشد الشعر بعفوية ليهمله على الفور بعد إنشاده تاركاً لأصدقائه أن يحافظوا على شعره وأن يحفظوه. ورغم محبتهم له ولشعره لم تنج قصائده من البعثرة والضياع إلى حد يدفعنا إلى الاعتقاد أن ما جمع من أشعاره لا ينقل بأمانة تفاصيل عبد المطلب التي يتحدث عنها أصدقاؤه، وربما لا يكون ذلك بسبب قلة ما جمع من أشعاره بل بسبب كون الشعر بالنسبة إليه مجرد هواية متطورة لم يشأ أن يدخلها في باب الاحتراف مدخراً لهذا الباب طاقة أخرى غير الشعر، ربما كانت السياسة، ظلت هي بدورها خارج باب الاحتراف.

الهواية في الشعر دون الاحتراف استندت عند عبد المطلب إلى أسس ثلاثة:

الأساس الأول: هو أن الشعر لم يكن عالمه الوحيد ونظن أنه لم يكن الأهم ولذلك لم تكن عنايته به موازية لموهبته فيه. يقول الدكتور حسين مروة عن شعره:

(إنه التفجّر الأفقي المندفع خلال قشرة الإحساس، ويأتي، حين يأتي، استجابة لتوترات عفوية آنية يدفعها من العمق إلى السطح... ذلك كان شأنه في أغلب حالاته الشعرية... سمة العفوية انسحبت على تعامله مع اللغة الشعرية في معظم ما كتبه شعراً بل انسحبت كذلك، أحياناً، على تعامله مع قواعد النحو والعروض رغم امتلاكه الوثيق لكل أدوات اللغة الشعرية وقواعد النحو والعروض).

يضيف الدكتور مروة: (كانت استجاباته للحظات التوتر النفسي، تندفع بقسرية حادة وبنورية لا تمهله أن يتوقف ليقارن ويختار ويستصفي ثم ليبني قصيدته بروية وتدقيق وإحكام..).

الأساس الثاني: إن الشعر عنده لم يكن طاقة استثنائية يندر وجودها، بل إن ملكة الشعر بين يديه قد توفرت في بيت عجّ بالشعراء وقد ذكرنا أن أخوته الثلاثة يكتبون الشعر، إضافة إلى عدد من أقاربه مما يترك الانطباع أن من طبيعة الأمور أن يكتب عبد المطلب الشعر من أجل الإبداع في ميدان آخر ينبغي التفتيش عنه.

الأساس الثالث: انتماء شعره إلى ما يُسمّى الشعر العاملي.

والشعر العاملي ليس حدثاً مفتعلاً أو قولاً ينحو نحو المبالغة.

الشعر العاملي ظاهرة تستحق التوقف وقد بادر الأستاذ حسن الأمين شفيق عبد المطلب كما بادر غيره إلى جمع بعض التراث العاملي وما زال الجزء الأكثر من هذه الظاهرة مبعثراً في الذاكرة الشعبية أو في الكتب أو في الأوراق الخاصة المغمورة...

لقد تفرّد جبل عامل بهذه الميزة بحيث لم تخلُ قرية فيه من شاعر ينشد أو ينظم أو يقرض شعراً بالفصحى وإذا لم يتوفر فبالعامية.

وربما تكون هذه الظاهرة مرتبطة بالتراث الشعري القديم أكثر من تأثرها بالتيارات الجديدة بدءاً من المدرسة الرومنطيقية حتى يومنا هذا ولذلك جاء شعر عبد المطلب أكثر استجابة لظاهرة الشعر العاملي بعفويته منه إلى التيارات الفنية والشعرية منها بخاصة، رغم كونه ولج باب الجديد وكتب خارج المألوف-التراثي من موزون الشعر ومقفاه.. كتب عن غسان كنفاني بعيد اغتياله:

قد كنت الكلمة

الكل الكل الكلمة

كالبرعم والصلد

كالصخر وكالورد

لا بدء بلا كلمة

لا شيء بلا كلمة

لا مجد بلا كلمة

لكن الكلمة...

من فمك المفصول عن الرأس

من صدرك هذا الراسي

هذا المفتوح على عكا

هذا المعشوشب بالحب

بالنار وبالحقد

شيء يخرس كل الناس

غسان، ولابد لأحلام الدمعة

من أن تجتاح هماك الجبارا

من أجل الأطفال ومن أجل الأم

أوليسوا (غسانين) صغارا

وغداً (غسانون) كبارا

من نطفة هذا الإنسان الملهم

المازج حبر الكلمة بالدم.

وعن هذه المسألة كتب الدكتور حسين مروة أيضاً يحدد انتماء شعر عبد المطلب:

(إن الذي نقدمه من شعره، وهو بعض شعره لا كله، يتخذ مساراً يتقاطع حيناً، ويتوازى حيناً مع مسار حركة الشعر الجديد، ... إن عبد المطلب كان

أزخر طاقة وأقوى طموحاً وحيوية، وأشدّ اندفاعاً للانطلاق والتطور والتحرر من أن يتخلف عن قافلته..).

إذن، هل ينتمي شعر عبد المطلب إلى التيار الجديد ؟ لا، لكنه ليس غريباً او بعيداً أو قاصراً عنه. كان قادراً على مواكبة الحركة الشعرية وقد عايش انطلاقتها بين الحربين وبشكل خاص بعد الحرب العالمية الثانية، لكن نتاجه الشعري لم يكن بشكل عام، مواكباً لها.

هذا عن عبد المطلب الشاعر. أما عبد المطلب السياسي فقد يكون الحكم عليه مقارباً وقد يكون النموذج الذي تكوّن عليه شاعراً هو نفسه الذي تكوّن عليه سياسياً... لذلك نسارع إلى القول إنه عمل في السياسة هاوياً، أيضاً، وليس محترفاً. لكنه هاوٍ بإمكانات محترف، هاوٍ يجيد بامتياز حرفة السياسة التي منع عن احترافها في السلطة بينما امتنع عنها في المعارضة الحزبية.

أما عمله كدبلوماسي فلم يدم طويلاً رغم نجاحه الباهر حسب زهير مارديني أحد أصدقائه وهو يروي عن لسان سعد الله الجابري رئيس وزراء سوريا ووزير خارجيتها آنذاك.. وإذا كان عبد المطّلب أحد مؤسسي وزارة الخارجية السورية فهو إلى جانب ذلك أول سفير أو قائم بالأعمال السوري لدى الاتحاد السوفياتي، وقد كان ذلك في الأربعينات أي في السنوات العصيبة التي مرت بالعالم العربي، إبّان معارك الاستقلال وفي فترة النكبة والتآمر الإمبريالي على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية. ويُحكى عنه نافذ البصيرة ثاقب الرؤيا حيال القضية الفلسطينية لكنه كان يقترح في واد والعرب الخونة يقررون في واد آخر فاعتبرهم عبد المطلب من أفضل الذين يتقنون غموض المواقف واستعداء الآخرين، ومن أفضل الذين (يكبرون

الكلام). على أن عمله في الحقل الدبلوماسي لم يدم طويلاً فما لبث بعد عودته إلى سوريا أن استقال من وزارة الخارجية احتجاجاً على انقلاب حسني الزعيم وبذلك بدأت مرحلة جديدة من العمل السياسي عند عبد المطلب.

المرحلة الأولى مرحلة العمل الدبلوماسي وقد دخل اليها بعد نجاحه في امتحان رسمي دعت إليه وزارة الخارجية، المرحلة الثانية دخل إليها بناء على امتحان أيضاً بينما كان الامتحان الأول اختباراً لمعلوماته، كان الثاني امتحاناً لموقفه.

في الحقل الدبلوماسي لم يكن هاوياً. لقد كان محترفاً رغم حداثة عهده في هذا الحقل، بل لقد كان محترفاً بامتياز. في حقل النضال الحزبي والشعبي والجماهيري كان عبد المطلب هاوياً، لم يدخل في تنظيم حزبي لكنه منحازاً لحزب الناس، للمستضعفين، للفقراء، الذين سلبهم الظالمون حرياتهم، والمستثمرون خيراتهم والمستعمرون أوطانهم، كان منحازاً ضد المتآمرين على بلادهم، ومنذ اللحظة الأولى لانقلاب حسني الزعيم أعلن موقفه واضحاً: لقد تمرد عبد المطلب لأنه رأى في حسني الزعيم خطراً على البلاد بتسلطه وارتباطاته ولأنه كان وفياً للذين تعاون معهم قبل الانقلاب... امتنع عبد المطلب عن الدوام مع بعض الموظفين الوطنيين ونظم قصيدة فيه منها هذه الأبيات:

... قل: ما انقلابك ؟ أي أمر جدّ فيه من الأمور
الملح ملحك لم يزل ترباً وخبزك من شعير
... هل أحرز الفلاح إلّا أرض عقلك، أرض بور
أو شمّ جيشك منك غير نفخ من غرور

أو نام عمال، وما أقبلت تفرش من حرير،
إلاّ على شوك البطالة والتدهور في الأجور
زعموك سيد نهضة فكشفت عن عبد أجير
تالله لو طبعوك من ورق ومن ذهب نضير
ما كنت إلاّ من دم المحروم أو دمع الفقير
ما كنت إلا ظفر الإستعمار ينشب في النحور
قد كان قبلك من طغوا هلاّ سألت عن المصير

(نذكر بالمناسبة أن الشاعر نزار قباني كان قد تغزّل بحسني الزعيم)[1]

بعد هذه القصيدة الوطنية ضد صاحب الانقلاب فُصل عبد المطلب من الوظيفة وكانت قصيدته قد انتشرت انتشاراً كبيراً. وعلى أساس مثل هذا الموقف الوطني كان عبد المطلب مع قضايا الشعب والوطن كتب عن آلامهم وأفراحهم ومعاركهم ضد الاستعمار، كتب عن الفدائي، عن معركة القناة، قناة السويس، عن حكم كميل شمعون، عن الهزيمة ١٩٦٧ عن غسان كنفاني، عن الثورة الاشتراكية الكبرى.

من وحي مهنته قاضياً، وجد نفسه يحاكم قسراً متهمين شتان بين جرائمهم وجرائم من يتربعون على كراسي الحكم كتب يقول:

فالبيت قصر الأثرياء والقدس وكر الأدعياء
وروائح البترول تزكم أنف كل الأنبياء

(١) للتوسع انظر ما ورد في كتاب هاني الخيرّ عن الرئيس أديب الشيشكلي ضمن هذا الفصل وانظر أيضاً ملحق الكتاب الهامش رقم (٣)..

تطغى على نتن الجريمة في دهاليز الثراء

والحاكمون الداعرون تعوّدوا شرف البغاء

ألفوا أريكات النفاق على متاهات الرياء

يا شعب جرحك في يديك وبين كفيك الدواء.

وكان بسبب مواقفه الوطنية شاعراً جماهيرياً يتضخم المهرجان ويتضاعف عدد المشتركين فيه والحاضرين له إذا كان عبد المطلب في عداد الخطباء.

إن ذلك يفسر لنا الشفافية التي امتاز بها في حسّه الشعبي وفي مواقفه الجماهيرية وفي قدرته على التعبير عما يجول في خواطر الناس من حوله والشهادات على ذلك كثيرة. في مثل هذه المواقف وإزاء مثل هذه القضايا كان عبد المطلب يهجر أسلوبه الكئيب اليائس الذي تحدثنا عنه ليعود إلى أسلوب مفعم بالثقة بالمستقبل وبالناس، مستنهد إلى هذه الثقة في سخريته من القيمين على أمور شعبهم. من النماذج الشعرية التي كتبها تلك التي تركها بعد الهزيمة في دمشق واعتنزل بعد وظيفته وكان يومذاك رئيساً لمصلحة التوجيه والتعبئة في وزارة الدفاع السورية. كتب هذه القصيدة وترك سوريا والوظيفة وغادر إلى لبنان، قال يعارض قصيدة شوقي التي مطلعها:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم أحداث وأزمان

نم وانس جلق واندب حظ من هانوا   على الأرائك أطفال وغلمان[1]

***

(١) يرجى العودة إلى الفصل الخاص بأشعاره.

وراء كل مواقفه صدق انتمائه. لقد انتمى إلى شعبه في جبل عامل، إلى قضية شعبه والشعوب العربية، إلى القضية الفلسطينية، إلى قضية الحرية، إلى قضية الإنسان.. لذلك آمن بالإنسان، بقدرته على تغيير العالم، بقدرته على صنع المستقبل وقد راح يثبت هذا الإيمان العميق بالإنسان بعدما أقام في الاتحاد السوفياتي وازداد إعجاباً بمنجزات الثورة الاشتراكية فكتب يقول عنها:

فإذا اكتوبر لا كالشهور زلزل التاريخ وارتج السرير
مادت الدنيا بعيني واجف حطّم القمقم وانساب العبير
... ودموع الجائعين انهمرت كهرباء تغمر الدنيا بنور
عرق الشعب، فلم يذهب سدى كدم الشعب لقد عاد هدير
أيها الشعب الذي أرفدنا بالسلاحين فنار ونمير

هذا عبد المطلب السياسي المنحاز إلى شعبه في معاركه الوطنية في معارك عماله وفلاحيه ومثقفيه، في نضاله ضد الغلاء وضد القمع، في كفاحه من أجل التحرر. لكن هذا السياسي الواضح في انتمائه لم ينخرط في تنظيم حزبي ولم يعمل باتجاه الزعامة الشعبية عن أي طريق رغم كونه ابن العلاّمة ذي الموقع المعروف كرجل دين متميز.

كان بإمكانه أن يستعين بهذا الموقع الاجتماعي والديني للحصول على موقع سياسي لكنه لم يفعل.

كما الشاعر والسياسي كان عبد المطلب المفكّر وعبد المطلب القاضي وعبد المطلب المحامي والصحافي والناقد.. فكره هو موقفه بل هو جملة مواقفه التي عبّر عنها شعراً وصاغها في زاويته في جريدة النداء وفي بعض ما نشره في صحف دمشق بتوقيع القاضي الفاضل وفي أحاديثه ونقاشاته مع أصدقائه وندمائه..

عنه شاعراً وسياسياً وصحافياً وناقداً نقول مع من قال: كان ينبغي أن يكون أفضل مما كان، لأن إمكاناته كانت أكبر بكثير من موقعه الرسمي! لكن! وهل كان عبد المطلب راضياً بهذا الواقع، وهل كان على شعور بأهمية الموقع الذي ينبغي أن يحتله؟ نعم لقد كان على يقين من ذلك لكن ردة فعله على الظروف التي حالت دون بلوغه ما يستحق قد عبّر عنها بشكلين وسلك حيالها مسلكين:

الأول يمكن استنتاجه من الأبيات التالية :

جرّني الكأس للحياة فأدمى ... قدمي البكر بالسرى والعياء
أنا لولاه مقعد في سرابي ... وأسير لوحدتي وانزوائي
لامني الناس في رفاقة كأسي ... يحرمون الأعمى عصا الاهتداء

كان من الملفت للنظر أن تكون علاقة عبد المطلب بالخمرة بمثل هذا المستوى من الحميمية فهي (صديقي وسميري وسلوتي وعزائي) وأن ينطبق عليه قول لأبي نواس كان يردده عبد المطلب بنفسه:

ومن الغنم أن تراني صاحياً ... ومن الغبن أن يتعتعني السكر

أو قوله:

تسألني عن سقمي صحتي هي العجب

قلنا من الملفت للنظر أن تكون علاقته بالخمرة على هذا المستوى في وقت الذي يعرف فيه بصلابة ارتباطه بتراثه الديني، بآل البيت، بوالده العلاّمة بالعادات والتقاليد السائدة بين أهل زمانه..

وربما كانت الخمرة بالنسبة إليه عالماً يتاح له فيه أن يكون أكثر انطلاقاً وأشد تفجّراً وأكثر حرية وأرحب خيالاً وأرهف إحساساً..

كان مع الكأس ينظم القصيدة بمثل اللمح ويترجم الصفحة إلى اللغة العربية بمثل ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقى فيه بالحجر (ابن الرومي) ومع الكأس والندامى في نفس العالم ونفس الواقع لكن بعلاقات جديدة لم تتدخل ولم تشارك في صياغتها تلك القيم المختلة، ومع الكأس شعر ونقد وسياسة وفكاهة ومع الكأس أناس (لا يصيبهم إلاّ بما شاؤوا) مع الكأس حرية محرّمة في بلادنا.

المسلك الثاني هو مسلك السخرية والنكتة والفكاهة الحاضرة دائماً والفكاهة تعريفاً هي مهارة اللعب على التناقض بين ما هو طبيعي وما هو مفتعل، عادي وغير عادي، سائد ومنقرض... الخ ولا يمتلك القدرة على الفكاهة من كان لا يمتلك ناصية النقيضين، على حدّ سواء.

وتزداد المهارة في ابتكار الفكاهة كلما اتسعت مادة الفكاهة لتشمل كل شيء، نعم كل شيء، القضاء، السلطة، الوزارة، السفارة، القصيدة، الصديق،

الزوج الشيخ، المسائل الحياتية الاجتماعية الأخلاقية إلى ما هنالك من أشياء ومواضيع، وبذلك تتجاوز الفكاهة حدّ التهريج والضحك الشكلي وتصل في مستواها وغناها حد الطرب الأصيل وهذا ما كان يتقنه عبد المطلب إلى آخر مداه مما يجعله متحدثاً وحيداً في الجلسات والحاضرون على ترقب لجديد من طرائفه وحكاياته وأشعاره وأخباره[1]...

وراء مهارته الضاحكة استخفاف بجوانب الواقع الذي منعه من إطلاق مواهبه وقد اتسع نطاق الاستخفاف هذا ليشمل بعض ما في الذهن من مقدّسات كان لامبالياً مع موته، مستخفاً به. الأشهر الأخيرة من حياته قضاها في المرض. كان يصاب بالغيبوبة وحوله الناس في حزن عميق كل واحد منهم يذرف دمعة بصمت وفي مثل هذا الجو من كآبة الحاضرين يصحو من الغيبوبة ليروي لهم نكتة تضحكهم. كان زائروه ينظرون إلى أعراض مرضه بخشوع ومهابة وبتأمل عميق بالحياة والموت فيشرد واحدهم إلى حيث يذهب به الخيال، وحده عبد المطلب كان دائم الابتسامة بل دائم الضحك على ما يظهر عليه من أعراض.

في مجال الشعر قلنا: لا يتقن الشعر إلا من كان قابضاً على عدة الشعر وأدواته ممتلكاً لمفاهيمه مستنداً إلى وضوح موقفه...

---

(١) هناك حكاية ماجنة موثقة نلخصها بعد التهذيب بمايلي: عندما كان محامياً في محاكم الكويت وكلته إحدى النساء المصريات للحصول على الطلاق من زوجها لأنه كان يمارس الحب معها بطريقة شاذة منافية للطبيعة، وحين سألها القاضي عن السبب الذي دعاها إلى طلب الطلاق، وهو أبغض الحلال إلى الله، خجلت المرأة من نطق الحقيقة المرة.. وهنا تدخل عبد المطلب الأمين، مشكوراً، وقال للقاضي:
يا سيدي زوجها المحترم بدلاً أن يفوت بقناة السويس، قام بالإلتفاف على رأس الرجاء الصالح ومفهومكم كفاية يا سيدي. وحصلت المرأة على الطلاق. (هاني)

وفي مجال الفكاهة نقول: لا يتقن الضحك والمرح والنكتة كعبد المطلب إلا من كان قابضاً على أدوات الفرح من الذكاء الحاد وسرعة البديهة ودقة الملاحظة وبلوغ الجرأة والعبث المفرط الذي يفتش عن الحقيقة في ما وراء الحقيقة، ويقابل بالنكتة من يلتقيهم أياً كان موقعهم ورتبتهم من ستالين إلى تشرشل إلى زملائه وأصدقائه وندمائه ورؤسائه ومرؤوسيه وكافة الفئات الشعبية التي كان يرتاح إليها أكثر من إرتياحه للآخرين.

وطرائفه لا تحصى ومزاحه لا يتوقف والحوادث التي تروى عنه وعن فنونه في الضحك كثيرة منها حادثة مع ستالين ومولوتوف.

وحادثة مع الشيخ هاشم الرفاعي في الكويت.

وحادثة مع السفير الأميركي في موسكو[1].

وآلاف الحوادث الأخرى التي نعتبرها مجتمعة أهم ما في شخصية عبد المطلب. فبواسطة هذا الأسلوب الطريف الفكاهي المرح ترجم عبد المطلب

---

(١) في حفل خطابي أقيم في موسكو حضره السفير عبد المطلب الأمين، والسفير الأمريكي، فضلًا عن العديد من السفراء المعتمدين هناك. وكان الخطباء - بحضور ستالين - من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ، يهاجمون بعنف وشراسة طبيعة الحياة الأمريكية المبنية على التمييز العنصري، وكذلك انتقدوا السياسة الأمريكية العدوانية تجاه الشعوب المكافحة الفتية بهدف نهب ثرواتها الوطنية من خلال تزعمها للإمبريالية العالمية، فكان الخطباء يهددون أمريكا بالويل والثبور وعظائم الأمور التي ستلحق بهم نتيجة طيشهم ورعونتهم، حدث ذلك في مرحلة الحرب الباردة بين الدولتين...
واستغرب السفير الأمريكي من كثرة ترداد اسم دولته العظمى في كلمات الخطباء، وبما أنه يجهل اللغة الروسية فقد سأل الأمين الجالس بجانبه عما يقوله هؤلاء ؟ فقال عبد المطلب: إنهم يهددون بأنهم سينكحون أمهاتكم، وكذلك نساء أمريكا عندما تسمح لهم الظروف بذلك وتميل الكفة إلى صالحهم. (هاني)

مواهبه وأخرجها إلى الناس وبها أدخل إلى القلوب فرح اللقاء به وبهجة التعرف عليه شاعراً وقاضياً ودبلوماسياً وناقداً وصحافياً ومحدثاً...

عبد المطلب كان حسب رأي الدكتور حسين مروة:

(طاقة بحجم طموحه تتوزع في طاقات، كل واحدة منها بحجم الطاقة- الأم: ثقافة مكتنزة عمقاً وشمولاً، شاعرية مرهفة لها شفافية الصحو الربيعي المشمس، نفاذ فكري يخترق الظاهرة الكثيفة، إلى جوهرها اللطيف بلمحة واحدة لها وهج شلال من الضوء، قدرة على التكيّف في مناخ كل ممارسة وكل سلوك وكل بيئة بشرية، صلابة في الموقف المبدئي لها تماسك الفولاذ ومرونته في وقت معاً..).

عبد المطلب الأمين
في كتاب معالم الشام وأعلامها
تاريخ التشيّع في بلاد الشام[1]

لمؤلفه: د. محمد سعيد الطريحي

السيد عبد المطلب بن السيد محسن الأمين، أصغر أولاد الإمام السيد الأمين، ولد بدمشق ومات ببيروت ودفن في شقراء (بجنوب لبنان).

درس بدمشق حتى تخرّج من كلية حقوقها، وفي عام تخرّجه عُيّن مدرساً للغة العربية في دار المعلمين الريفية ببغداد، ثم رجع إلى دمشق وكان أحد اثنين أسّسا وزارة الخارجية السورية، ثم عُيّن قائماً بأعمال السفارة السورية بموسكو، ومنها نقل إلى السفارة السورية ببغداد، ثم إلى الإدارة المركزية بدمشق. وحين قام إنقلاب حسني الزعيم وقف ضده وهجاه بقصيدة مجلجلة ففصل من وزارة الخارجية، فانتقل إلى لبنان وعُيّن قاضياً لمحكمة أميون فمارس القضاء بضع سنين ثم تركه، وعمل محامياً في الكويت، ثم آثر العودة إلى لبنان حيث انصرف للكتابة والترجمة حتى وفاته. له شعر كثير ضاع أكثره وما بقي منه نشره شقيقه الأستاذ حسن الأمين (رحمهما الله) في مجموع صغير باسم (شعر عبد المطلب الأمين) . ومن غرر شعره قصيدة

(١) من منشورات دار الرافدين ، بيروت.

يمدح بها مسقط رأسه دمشق وقد تناولها بالبحث زهير مارديني فقال: ومع أن عبد المطلب من جبل عامل فلم يلتصق بهذا الجبل.. لقد التصق بدمشق التي أحبته وأحبها، وشأن المحبين فرض عليهما الفراق، فإذا به يعيش ببقايا جسمه في بيروت، وبكل روحه في دمشق فإذا كان المجنون في الأدب العربي قد جن بليلى العامرية، فإن عبد المطلب قد جن بدمشق... إنه يخاطبها (بأمي دمشق):

طيبي دمشق ثرى وطيبي محتداً — عبق الجنان على ثراك تجسّدا

وأشم تربك عاشقاً، بل عابداً — طفلاً بأحضان الأمومة وسّدا

هكذا كان عبد المطلب يتعامل مع محبوبته دمشق، يحزن ويبتسم من خلال دموعه، محاولاً أن يستدعي مشاعره بهذا السحر الغامض للحب، مدركاً قدرته على البقاء إلى جانب من أحب... لم يزل طفلاً يؤمن بالبراءة والسحر الحلال، ولعلّ قيمة الديوان تنبع من احتفاظ الشاعر بطفولته، أن صوره تزداد تشرداً، وأخيلته الشعرية تتجاوز الزمان والمكان، ولكن الكلمات لم تزل تحتفظ بندى البراءة الطفولية، وخاصة مناجاته لمحبوبته دمشق.

ومهما كان رأي رفاق عبد المطلب بسيرة رفيقهم وطبيعة حياته، فإن الشاعر يتحمّل بشجاعة نزوات قلمه ويقف إلى جانبه، على طريقة انصر أخاك ظالماً أو مظلوما. والمسألة مسألة مبادئ غمس عبد المطلب نفسه في العقائد، وكان شاباً متمرّداً على المألوف يخرج من مشكلة معقدة ليقع في أشدّ منها، وهو إنسان يحمل نفسية (ماركوبولو) الرحالة.. أو قل إنه أقرض (ماركو بولو) جزءاً جدولاً أو نهراً من أنهار الحياة أو الفن إلاّ ألقى

بنفسه فيه واغترف منه حتى ارتوى... وربما غرق في نهر غير أنه لا يعبأ.. وإذا كانت حياته بهذا القلق المجنون غير المسؤول فإن فنّه لا يقل جنوناً عن حياته.. أليس فنه صورة... هو ملاّح مهاجر من ميناء إلى ميناء، ومن شاطئ إلى شاطئ... يدلف بقسوة إلى الغابات المليئة بالأفاعي السامة، فوق جواد الظلمة:

في أي صقع أستقر وأسكن ... ولأي ظل أستريح وأركن
ألف السرى قدمي فما يحلو له ... إلاّ التشرد فهو أشرس أرعن
من كل أرض في نعالي غبرة ... ولكل ريح في ثيابي مسكن

وينقلنا عبد المطلب أحياناً إلى جناحي هواه وذكرياته.. إلى اسكندينافيا، حيث كان زورق أحلامه يسبح في لجة العينين الزرقاوين شراعه، ومجدافه نشوان من غمرة الدعاب فتهزه الذكرى:

بنت الشمال ندية ذكراك ... وعلى فمي لما تزل شفتاك
ريانة وكأنما - خسأ الظمأ - ... بالأمس مرّ بها سخي لماك
عام مضى وندى عطرك لم يزل ... وكأنما بالأمس فوح فاك

في شعر عبد المطلب الأمين يظهر قلبه الذي ملأه الألم، ويزداد الخصب في الكلمات فتنبت أشجار الفن دون تنسيق، كما تنبت في الغابة البعيدة عن يد الإنسان ومقصه، وليكن ما يكون من أمر الثمار المريرة التي تتعثر فيها في الديوان، أن مرارة ثمار الفن لا تعني أنها غير قادرة على التطهير... لا بأس بالبراءة التي تولد داخلنا ونحن نقرأ أشعار عبد المطلب الأمين.

ولسوف نحسّ من قراءة ديوانه أن أسلوب عبد المطلب الوحشي في الصياغة، لم يزل مجموعة سريعة من الصور التي تصوّر لنا فارس الديوان وبطله وهو يجري فوق جواده الأسود وسط غابة عريقة وعميقة... وسوف يقول لك عبد المطلب إنه يجري مع الألم، غير أنك تحسّ أنه في الطريق لاكتشاف مجهول جديد لم يسبق لغيره أن اكتشفه...

ويمضي الأمين في ديوانه فتبعث دموعه زنوبيا من قلب الصحراء العربية، وتلك هي الفجيعة، ولذلك نرى الأمين يصرخ ألمه ويبكي أحزانه، وتخطف رجع صوته رياح هوج وتبدد في الصحارى نداءه. ولكن هل استطاع أن يجمع كل ما قاله الأمين من شعر؟ بالتأكيد لا... !

ولو كان عبد المطلب شاعراً ولد في بلد غير عربي لكان (رامبو) الشرق، ولكن أين شعره؟ أين نثره؟ أين مذكراته؟ إن الديوان لا يحتوي على أكثر من واحد بالمئة مما قاله الأمين، أما الباقي فموزّع في الصحف الأدبية والسياسية، القليل منها نشر بالرغم عنه، والكثير الكثير ضاع على الأرصفة.

لقد كتب على ورق ممزق، وأقلام حبر بالكاد تتلمسها نظراتك وبحروف هي أقرب (للكرشونية). لقد تشرّد شعره نتيجة العدى من قائله.. كما تشردت نكاته أيضاً، وبعدها تشرّدت السيرة والسريرة.

الست لغات التي يتقنها، وكمية المواهب التي كانت تغلي في عروقه، وشاعريته، وسخريته، كل هذا كان أعجز عن أن يخضعه للسير الوئيد.

لقد ظلّ يستعجل الرحيل لأنه سئم الحياة التي لا يستطيع أن يحياها على هواه.

عبد المطلب الأمين في كتاب المقامات[1]

لمؤلفه: د. عبد السّلام العجيلي

جاءت هذه المقامة الضاحكة جواباً على المقامة المِسْكوبيّة التي كتبها عبد المطلب الأمين وأرسلها إلى صديقه الطبيب عبد السلام العجيلي الذي كان يومذاك عضواً في المجلس النيابي السوري عن مدينة الرقة.

(هاني)

المقامة البرلمانية

من سكان الكمال والبرازيل، جماعة القال والقيل خفيفهم والثقيل، إلى المقذوفين في ثلوج الأحقاف أو وراء جبل قاف، عبد المطلب الذي هو بأعمال المفوضيات قائمْ، وهشام الذي في أحضان الديفوشْكات[2] نائم، الممثلين عنا وعن أولاد آدو، في بلاد يركب فيها القطار، ويُتَغذّى بها بعد الإفطار، وإذا ركب امرؤٌ طيارة فيها طار.

(١) المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٣ .

(٢) الفتيات الروسيات.

سلامٌ وكلام، إلى عبْدٍ وهشام، وبعد السلام أشواق، تحترق من وصفها الأوراق، أوفرُ في العدِّ من آنات الصافي[1]، وأرق من أعصاب لطفي اليافي، نسأل فيها عن الحال، أحرّ السؤال، وعن الفَوذْكا والكافيار، أهما من منبوت الأرض أم من محصول البحار ؟ وما أمر الفوذْكا أمام البلابان، أو ابنِ عمّه قازان، والكافيار، أمام مخلّل الخيار، أو مازة مقهى مسمار؟

أما إن سألتم عنا يا أهل موسكو، فإن حالتنا فياسكو. وكيف بمن خَلَتْ منهم الجيوب، وكان سميرهم أبو قَيُّوب[2] ؟ لا يزال نهارُنا صاحياً وليالينا سَكْرى، ننتقلُ فيها من حانةٍ إلى أخرى، حتى النيابةُ دَوْدَخْناها، وانتخبنا لها فريداً وعبد السلام فشَرْشَخْناها ، فبعد أن كانت صنعة الإرستقراط جررناها معنا إلى سقراطْ، وأسكرناها مَعَنا في كوكي،[3] وسقيناها زوذْ ياكا بعد جوكي. فلما ضاق بها الأمرُ بكت، وذهبت إلى رئيس المجلس واشتكت، وقالت له يا بُعْد عيني، ويا أرشقَ من الرُّمح الرديني:

أشكو إليكَ المفلسينَ وقد أتوا ... متنكريـــن بهيئـــة النـــوّاب
فَرغتْ جيوبُهمُ وطالَ لسانُهم ... ولبئس هـذا الصنف مـن خُطّابي
يَمشونَ مثل الكادحين بيادةً ... حافي الرؤوس مُهَـرْكلي الأثوابِ
لهفي على القوم الذين عرفتُهم ... في سـالف الـدورات والأحقابِ

---

(١) هو الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي الذي اتخذ دمشق موطناً له لعقود أربعة.

(٢) أبو قيوب: هو أبو أيوب الكردي الذي كان يقلقل القاف. كان يلازم المثقفين والصحفيين، ويفرض على الوزراء والنوّاب أتاوات لابد من دفعها.

(٣) كوكي حانة متواضعة من حانات دمشق. والزودياك أردأ أصناف السكائر وجوكي كلوب أفخرها في حين كتابة هذه المقامة.

ركبوا على الروزْرَيْس في غدواتهم والويسكي مثلُ الماءِ في الأكوابِ
لم ينبسوا في البرلمان بهمسة وجفونُهم لم تكتحل بكتابِ
هيهاتَ يرجعُ لي الزمانُ أحبّتي ويعيدُ عهدَ الأنس من أحبابي

فلما سمع الرئيس كلامها، بكى حسرة أمامها، ثم حكَ رأسه بمداسِهْ، وشدّ تكّته على لباسِهْ، وانطلق يصيح، بالعربي الفصيح:

خففي الشكوى وكُفّي دَمْعَكِ أنا في البلوى غريقٌ مثلك
كم دعوتُ اللهَ في جُنْح الدجى لطلوع الفجر بلْكي تهلكي
علّني أخلصُ من فلسفةٍ وخطابات كضرب الفشكِ
وشبابٍ نغّصوا عيشي بها بوّظوا بُرغْي دماغي المنهكِ
ليتهمْ منها جنوا فائدةً إنما هو كله حكْي بحْكي

هذا عن جلسات البرلمان، والعجيلي وارسلانيان. أما عن حلقات الأخوان، فإن لواءَها لا يزال معقوداً ورواقها لا يزال ممدوداً، يتصدرها صلاح المحايري، ويديرها سعيد الجزائري. توزن فيها أصنافُ الناس بالميزان والقسطاس، وتنصبُ المقلايةُ على حوافيها، وويل لزيد من الناس، إذا وقع فيها: فسعيد يعيبُه بشدة التقتير، وصلاح بقلّةِ التفكير، وضيابكْ بأنه لا يطير. أما ممدوح الميداني فيقول عنه إنه أناني، لأنه في يوم الثلاثاء، رآه ولم يعزمه على الغداء. ولا تسل عن رسم خالد الكاريكاتوري، وتعليقات أخينا الأندبوري، الذي هجر الجماعة، بعدما توظف في الإذاعة، فلم يعد

كوكي يراه، ولا بريمو يلقاه كأنه لم يقعد معنا ليلة ويشرب، أو كأننا لا نعرف المرحومة أم مكسب..

أما عن صلاح وعبد المجيد، فليس لديهما من جديد، إلاّ أنهما منذ يوم التقسيم، في همّ عظيم، فقد وجدا أن أقرب طريق للجهاد أن يقتلا صديقهما فيتا على رؤوس الأشهاد. ولكن فيتا وكل بني اسرائيل، قد هجروا مقهى البرازيل، فانصرف صلاح يقول، وعمر السامعين يطول:

أردنا جهاداً في اليهود فلم نجد ... سوى غيدهِمْ بالطيبات تجودُ
حسانٌ إذا ما مِسْنَ طلَّق كأسَه ... نسيبٌ وغَنّى بالنساء سعيدُ
وان لُحنَ أذّنا على طول صبوةٍ ... ولابد من بعد الأذان سجودُ
يقولون جاهدْ يا صلاح بغزوة ... وأيَّ جهاد غيرَهن أريدُ
لكل حديث بينهن بشاشةٌ ... وكلُّ قتيلٍ بينهنَّ شهيد

والسلام عليكم يا من تفهمون الكلام ...

عبد السلام

دمشق كانون الثاني ١٩٤٨م

وفي كتاب (المقامات) للعجيلي، هذه (المقامة) الساخرة التي كتبها الشاعر عبد المطلب الأمين تحت عنوان (المقامة المِسْكوبيّة):

من العصبة النازحة من أولاد آدو[1] إلى البقية الباقية من سكان الوطن الأمّ، مقهى البرازيل، عن طريق السكرتير العام للنازحين والمقيمين الأستاذ سعيد الجزائري.

الرجاء إبلاغه إلى كل من لا يهمهم الأمر، لعدم الإطلاع..

سلامٌ وتحية، وقبلةٌ روحية، إلى أهل الفضل والأريـحية، المبتعدين عن القواعد الصحية. أسعد اللهُ منكمُ المساءَ قبلَ الصباح، يا أهل العربدة والجماح، الذين لهم كل شيء مباح، والذين عُمرهم اغتباقٌ واصطباح، وجفوةٌ عن الصلاح، ونَفرَةٌ عن الإصلاح.

أما بعد، ولله الحمد، فإننا ما نزال على العهد، بعيدين عن الجد، نأخذ من الفودكا صدا ونعطي رد... في الليل كما في النهار، في الطائرة كما في القطار، وعلى ظهر الحصان أو الحمار، وفي الشختورة أو في بابور البخار. أما أنتم فمازلتم مقهورين، بين سقراط[2] وبريمو غادين رائحين، تشربون من المشروب اللعين، وتأكلون أكلَ المساكين، مِزّةً قوامُها القضامةُ والبزر، ومن البرتقال والخيار القشر، ألهمكم الله الجلَدَ والصبر. وقد يأتيكم صاحبكم بالقليل من المتبّل، وبالمعفّن من المُخَلّل، ويعدُّ كلاً منكم مرفهاً مدلل. فإذا فات الوقت المعيّن صاح بكم الجارسون: عجلوا يا شباب، خلصوا الشراب، فتحنا الشبابيك وأغلقنا الأبواب:

(١) أولاد آدو لقب يطلق، في دمشق، على عصبة من الصحاب البوهيمي الطباع الحاذي الألسنة الكثيري الفضول.

(٢) سقراط وبريمو مطعمان معروفان في دمشق أيام زمان. الأول بجوار مقهى (الهافانا) الشهير، والثاني يقابل الباب الجانبي لمبنى مجلس الشعب السوري. (هاني)

الوقت حان فسكروا الأبوابا ودعوا الشراب وغادروا الأكوابا
إنا لنرثي للكؤوس وحيدة تبكي الصحاب وتندب الشرّابا
إن المراقب لا يجيزُ مخالفاً سيانِ باشا كان أو حطّابا
بإرادة العرق الجليل دخولنا وعلى خوازيق القناني نخرج
الليل يا صحبي طويلٌ ممتعٌ يغري، وموعدنا الصباح الأبلج

أما إذا كانت السهرة في الكمال(١) وكثر القيل والقال، واحتدم النقاش والجدال، راح إخوانُ الصفا، وخلان الوفا وجماعة الحكي بالقفا، يتحدثون ويتسامرون، وبأعراض الناس ينهشون، فلا يتركون ولا يدعون. فالآدمي في عينهم هبيل، والمستحي خرطبيل، والعالم طبلٌ جهيل، والوطنيّ خائن ضليل. فإذا سكتوا عن الكلام المباح، ودارت من الشاي الأقداح، وبدأ العَشّا يطفئُ مصباحاً بعد مصباح، ويرفعُ الكراسي عن الطاولات، ويلم البوش من أمام الزبونات، هناك تنقطع الشَفّةُ المرّة، وتبقى في نفوس الناس منها حسرة. فينرفز الناس لهذا الجست البارد، وتزعجُهم لملمة المقاعد، ويشرعون في نظم القصائد.. أما صلاح فيقول في هجو الجارسون: لقد عرفت ذلك بالحدس، وأدركته اليوم، باللمس، من أنك من معدن اللؤم والدس.. فوالله لو عرفك نيتشه، لما سلمك فيشه، ولو عرفك برغسون، لما جعلك جارسون. ولو عرفك سبينوزا، لما سلمك غازوزه، ولو عرفك أفلاطون، لما مسّكك كاسة ليمون. ولو عرفَك ابنُ سينا، لما مسكك كوتشينا. ولو سمع بك ابن زهر، لما سلمك طاولة زهر، ولو شافَك غاليله، لما أعطاك أركيله. ولو

(١) مقهى الكمال من مقاهي دمشق المشهورة والعشّا صاحبه.

عرفك شوبنهوَر، لجعلك رمزاً للؤم البشر. ولو أدركك الغزالي، لا تخذ منك نموذجاً لأصحاب المعالي. ويعقب عليه خالد فيقول: أنفُك إشارة استفهام، وأذناك حلقتا لِجام، وفمُك مغارة الحمّام، وشعرك ليفة الحمّام، وعيناك لا لِورا ولا لأدّام.. رجلاك قشتا قنّب، مزروعتان في سبسب، يداك طويلتان، بلمّ الكراسي ناشطتان، وعن تكتير السكَّر عاجزتان.

أما إن جلستم في مقهى البرازيل، فحدّث عن القال والقيل، ولا حرجْ، ولا تسل عن الهرَج والمرَجْ، هناك لكل غمة فَرجْ.

فالسياسة في القرنة يتزعمها سعيد، ينصت ويستعيد، يبدي ويعيد، يسقط وزارة ويرفع أخرى، وقد تكون من سابقتها أحرى. وصلاح وعبد المجيد، يرقبان الجيل النسائي الجديد، ويضربان له المواعيد، وينفقان له مافي صندوق الحديد... وقد يشاركهم في ذلك فيتا، دون أن يستعمل حق الفيتا. أما فريدُ النائب فلعله اليوم عن البرازيل غائب، قانع بالوجاهة والراتب، مهمل شؤون المكاتب... فإن كان كذلك فهو ولد عاق، سيلاقي في النيابة القادمة الأهوال والمشاق، وسوف نناصر خصمه جدّيا، ولو كان جاهلاً أمياً، أو خائناً رجعياً، لا يعرف عَرَبياً ولا تركياً. أما صاحبنا عبدُ السلام، فعليه منا أفضلُ تحية وسلام، لأنه من حملة المباضع والأقلام، ونجزم أنه للبرازيل قد آب، بعد أن أخرجَ جماعة من النوّاب، من الرّقة والباب، فصدق عليه قول ربكم على وجه التقريب: منها خلقناكم وفيها نعيدكم. وإلى الدكتور نتوجه بالقول، بعد الإعتماد على ذي الحول والطول، راجين ألاّ تشغله الإجتماعات، وسخيف المقالات والخطابات، وتسقيط الحكومات وتنصيب الوزارات، عن كتابة البديع من المقامات والحرير من العبارات... وفي ذلك يقول القائل:

عبدَ السلام تحيتي وسلامي ... لا تنس توجيهي ونصحَ كلامي
دمُك الزكيّ أرقْتَه بعروقها ... فأعَدتَها من عالم الأوهام
رُدّتْ إليها الروح بعد طلوعها ... وتذكرت ما مرَّ من أيام...
تلك الأقاصيصُ التي نَمّقتَها ... تسوى النيابة في بلاد الشام
تخِسِئَ الحريري أن يصوغَ مقامةً ... حلّت من الآداب خير مقام

وهنا أقبل المساء، وجاءت الديفوشكات، فتيات موسكو الجميلات، فتعذرت الكتابة.. فإلى رسالة قادمة ودمتم محترمين، وإذا لم تكتبوا لنا فسوف نكون على هذه الرسالة نادمين.(١)

موسكو حرر على عجل، في يوم من أيام تشرين الأول عام ١٣٦٦هـ

هشام - عبد المطلب

ويدخل في أجواء هذه (المقامات) الشاعر نزار قباني، حين كان يعمل في السفارة السورية بأنقرة قائلاً:

.... وهو يشابه في إعجاز أسلوبه أحد الأتقياء المرسلين. صديقنا وصديق البارات عبدَ المطلب الأمين ! و(مينْ) لا يعرفه / مين/ ؟ من كارل ماركس إلى ستالينْ... تقيّ وصلاح ودين... يكره المازة، والمشروب، ويؤوب إلى بيته مع الغروب، ليمصَّ من (بزازة الحليب)، ممزوجةً بقليل من

(١) إشارة إلى قصة قصيرة معروفة للمؤلف، يروي فيها حكاية فتاة جريحة أنقذها الطبيب المعالج وهي في آخر رمق بأن نقل إليها دمه هو (قصة حفنة دم) المنشورة في مجموعته (بنت الساحرة)، دار مجلة الأديب للنشر.

يانسون وزبيب، وبعدها ينغمرُ ويأكلُ قطعة بسْطِرما، وتصرخ في شرايين رأسه الحمّى، فيشد الرحال إلى القهاوي، ليجد حبيب الكؤوس والنفوس سعيد التلاوي، سادراً بين العرق والشاورما والكلاوي، يغني بصوت كفرقعة الحجر المزّاوي... فيسأل الليلُ ماهذه البلاوي؟ فيجيبه صاحب (الفيحاء): إخرس هذا صوت سيد رأسك سعيد التلاوي!... حتى إذا أوشك أن ينبثق جفنَ النهار، (تهوّن) السادة إلى (بسمار)، يستمعون إلى جعير الأوتار، وغنج راقصةٍ وزنها قنطار، يخاف من عمق سرّتها الزّنار... ويتحدى ثديها نعّارة، اللبن بخيار، حتى إذا اكتمل العقدُ الفريد، وافاهمْ حبيبنا الجزائريُّ سعيد، صاحبُ اللسان العتيد، المنجّدُ أحسنَ تنجيد كأنه كرباجٌ من السلطان عبد الحميد... وسعيدٌ فارس كلّ خِوان، يعبقُ بقناني البلابان، حتى إذا حان موعد فتح الجزدان، قرأ سورة الرحمن، وتعوذ بالشيطان... وقال خاطركمْ أيها الأخوان!

نزار قباني ١٩٤٩م

عبد المطلب الأمين
في كتاب رسالة إلى امرأة نسيت اسمها
مقالات في الأدب والفن[1]

لمؤلفه: حنّا مينه

... إن مقهى البرازيل هذا، قريب قليلاً من بوابة الصالحية كان مجمع الأدباء والمفكرين والظرفاء والمحاربين، ومقهى أبو حسن صاحب (حزب يصطفلوا)، ومقهى الظريف جداً الشوربجي، صاحب النكات الخفيفة الظل، نافذة الحد، باترة الجلد حتى العظم، وصاحب المقولة المعروفة (مقهى الصفا والحكي بالقفا) وأصحاب النوادر الذكية الموجعة مثل نجاة قصّاب حسن، وعبد المطلب الأمين، الذي اخترع نهضة (الزعمريس) أي الزعيم الرئيس شكري القوتلي، ومحمد الماغوط، هذا الذي كتب المسرحيات الشهيرة، مع الفنان دريد لحام، مثل (ضيعة تشرين)، و(الغربة)، و(كاسك يا وطن)، وأفلام (التقرير) و (الحدود)، وغيرهما الكثير، وكان الماغوط رحمه الله، أحد عباقرة العرب، وأعلاهم مقاماً، مع دماثة، ولطف، وحسن معشر!

(١) من منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ٢٠٠٨م.

ليت المراثي التي ابتدعها كل هؤلاء المبدعين، بعد إغلاق مقهى البرازيل، دوّنت، وحفظت في كتاب، لكانت تاريخاً مجيداً، لتلك الحقبة من تاريخ سورية، منجم الإبداع.

وفي مكان آخر من الكتاب يقول الروائي حنا مينه:

...... إنني أتكلم هنا عن الخيبة بتعميم وليس بتخصيص، فالخائبون بعد نجاحات، في جميع الحقول، ليسوا بالندرة كما نتصور للوهلة الأولى، وعن هؤلاء الخائبين قال الشاعر الراحل عبد المطلب الأمين، في نهاية الأربعينات، أو بداية الخمسينات، بيته الشعري المعبّر جداً:

ونحـــن الكبـــار بآمالهـــم صغـــار بخيبـــات آمالنـــا

إن التجربة هي المحك، في الكفاح على مختلف أصعدته وأنواعه، وقد عرفت مناضلين سياسيين تحملوا السجن بصبر وشرف لمدة غير قصيرة، إلاّ أنهم، بعد السجن، اعتزلوا النضال لأسباب شخصية أو عامة، يأساً من إمكانية إجلاء المحتلين عن بلادهم، أو يأساً من إحداث التغيير نحو الأفضل، أو ظناً منهم أن النضال، بالجسد أو بالكلمة، سيحمل النصر السريع، أو يتكلل بالظفر خلال وقت قصير، أو وقت طويل بطول أعمارهم، فلما وجدوا مسافة النضال أطول من هذه الأعمار، أو أنها تتطلب عقوداً أو قروناً، خابت آمالهم، بدوا صغاراً بهذه الخيبات، بعدما كانوا كباراً في آمالهم قبلها، أي قبل التجربة إياها وفيها ! ......

عبد المطلب الأمين
في كتاب الحبة والسنابل - محاضرات[1]

لمؤلفه: نجاة قصّاب حسن (المحامي)

.... أما عبد المطلب الأمين، فقد كانت له جولات هائلات في الشعر الضاحك، ولكن حين توفى عفّ أهله وهم من رجال الدين، وأبوه كان المجتهد الأكبر للشيعة، فلم ينشروا منها شيئاً، ولكنها بقيت في أذهان القدامى. وأذكر منها معارضته لقصيدة قديمة، فقد قال عن اثنين من رجال السياسة:

أتعلم أن الشام أضحت مهازلاً فلا عرفها عرف ولا نكرها نكر
يتاجر فيها بالعروبة فاشلاً شفيق سليمان وصاحبه بكر

وكانت حصيلة هذه القصيدة التي تناقلها الناس في نفس اليوم، أن جاء إليه من اسمه بكر في نفس العشية، ونقفه قتلة لا تنسى في مقهى الفاروق.[2] ولكن عبد المطلب الأمين، الذي كان جاري على الصفحة الأولى

(١) من منشورات دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٤.

(٢) من مبالغات وتهاويل الأستاذ الكبير نجاة، أضافها إلى القصة من أجل الإمتاع الدرامي وحسن الحبكة، ولو حدث الإعتداء فعلاً، لكانت قد لحقت كارثة بالمدعو (بكر) من قبل مريدي ومحبي والد الشاعر الكثر، الذين يصعب تحديد أعدادهم في سورية ولبنان والعراق، فضلاً عن العديد من الدول الإسلامية. (هاني)

من جريدة الرأي العام: أنا أكتب بتوقيع (الفصيح) وهو يكتب بتوقيع (القاضي الفاضل)، علماً بأنه عمل قاضياً ولكن لم يكن فاضلاً بل ماجناً ظريفاً، ظل ينظم الشعر الكاريكاتوري الذي لا مثيل له.

ولعبد المطلب ديوان خالٍ من الطرافات، ولكن فيه شعر متين . وشعر الشيعة دائماً متين، ولكن أنقل من هجائية قالها في حسني الزعيم:

أدعوك ماذا ؟: بالرئيس أم الزعيم أم المشير؟

شبك من الألقاب خفتُ على اللسان من العثور

إني رحمتك من عظيم اللفظ في المعنى الصغير

وجزعت أن قصرت عن شأو الفرزدق أو جرير .

وقصته مع خروشوف[1] تذكر. فقد كان أول قائم أعمال لسورية في موسكو.

وذات ليلة وبعدما أخذ ضعف الكمية المعتادة من الفودكا، طلب مقابلة عاجلة من خروشوف لإبلاغه رسالة خطيرة من دمشق. وصدّق الرجل، واستقبل عبد المطلب، فقال له هذا: أنا مكلف من حكومتي بأن أقول لكم بأن سورية ليست لها مطامع إقليمية في أرض الاتحاد السوفييتي!! وكانت

(١) الصواب ستالين الذي حكم الإتحاد السوفييتي بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٥٣ م. ومدة هذا الحكم الطويل تواكب عدة سنوات منها، وجود الشاعر عبد المطلب الأمين في موسكو، بصفة قائم أعمال لسورية في موسكو، قبل أن تتطور العلاقة الدبلوماسية، إلى مرحلة تبادل السفراء بين الدولتين. وفي زمن ستالين الذي خرج منتصراً على النازية في الحرب العالمية الثانية، تم تحطيم احتكار السلاح النووي وفرض توازن الرعب مع الولايات المتحدة الأمريكية. (هاني)

ضحكة مجلجلة وعبد المطلب كان يدهده في ضحكته (كأنها آخرها ترداد المقطع ده..ده..ده..) فنضحك منها ومعها..

صار عبد المطلب بعدها نديم خروشوف في أكثر السهرات، رحمه الله كان ألطفه وأحسنه وأقواه في الشعر والجد والهزل الذي يوظفه لخدمة الأغراض الجادة.

عبد المطّلب الأمين
في كتاب الشاعر المتمرد [1]

لمؤلفه: محمد موسى حمادة

من رحاب شقراء، منارة العلم والدين والأدب والشعر والشعراء، موئل الثقافة والمعرفة، ومفخرة الدساكر العاملية، أطل على مساحة منيرة من حياة الشاعر الاستثنائي الملهم عبد المطّلب الأمين علّني أضيء شمعة إضافيةً في محراب عبقريته الفذّة.

لقد نهد شاعرنا منذ مطلع شبابه لكبريات القضايا متجاوزاً سطحيّات الأمور، سابراً غورها بمنطقه العاقل حينا والمتمرد أحياناً وفلسفة المجرِّب المتوقّد طموحاً صوب العلياء، فقشور المسائل تذهب هباء مع عصف الرياح، ويبقى الأساس متجذراً في أرض اي مبحث علمي، فكري، أدبي، وفلسفي...

لست أوّل من قرع باب مملكة الشاعر عبد المطّلب الأمين، وقد سبقني إلى ذلك أدباء وشعراء ومفكرون، كل ترجم حياة شاعرنا ونتاجه الشعري من منظوره أو معايشته للشاعر الراحل، ذي النبرة الحرّة المؤزّرة بغيم المعاناة، وصدق المشاعر، وعمق الرؤية والكلمة البكر العابقة بأرج العنفوان والشموخ.

---

(١) من إصدارات هيئة إنماء المنطقة الحدودية، بيروت ٢٠١٤م.

سأتناول في كتابي المتواضع جوانب من حياة الشاعر عبد المطّلب الأمين، ونتاجه الشعري المبعثر في زوايا مكتبتنا العربية والوطنية، والمؤلم في الأمر أن تجمع شظايا لجسد لتجسّد شخصية المقصود، لعمري ذلك من الأمور المؤلمة التي تصفع الوجدان وتلقم جبين المعرفة والتراث بحجر اللامبالاة.

ولا يغيب عن بالي نمط حياة شاعرنا العبثي وقلّة التنسيق والأرشفة في أكثر الأحيان، وفي الوقت عينه أعذر الشاعر الراحل في هذا النسق المضطّرب، لأن بنات الشعر وومضات الإلهام لا تطرق باب المبدع بل تأتيه على حين غرة، فيكتب على علبة السجائر أو على قصاصة من الورق...

وما يزيدُ في الموضوع إيلاماً أن يجوب الباحث القرى بحثاً عن كنوز عبد المطلب ومذهّباتِه والقلائد، وكثيراً ما يعود الباحث مكسور الفؤاد وهِنَ العزيمة ، جامعاً شتات، أشعارٍ من العامة أو بعض الخاصة، يحاول جاهداً أن يجعلَ مما جمع مادة شعرية تنصف قائلها. فهذا الرذاذ المتساقط لا يروي زَرْعَ الشّعر ولا يبلّ رمقَ الأدب، وكأننا نعيش جفاف المواسم وقحط السنين العجاف، فعُذراً أبا محسن وأنتَ نديُّ السَمْحِ شيمتُك الصبرُ بلّى للهوى عليكَ نهيٌ وأمرُ، ومثلُك هل يذاعُ له سرٌّ والسرُّ مَسْكونٌ في من عرفوك، فأنصفوك رغم قلّتِهم، وأنت الشريدُ في برّية الكلام شعراً وأدباً ومنطقاً وفلسفة وثورة حتى الحِمَامْ...

عذراً أبا محسن وأنت قصيدة القصائد، ومَطْلِع القلائد، ولُجين المعدن المصهور المذابْ ، فعذاباتك فجّرتْ حُلوَ القصائد وأمتع الشعر وأرقه وأبعده مدىً، فمن أين أبدأ..

عبد المطلب الأمين في كتاب كبار عرفتهم [(١)]

لمؤلفه: الشاعر نزار الحر

عبد المطّلب الأمين، هو شاعر الظل الخفيف، والمعشر اللطيف، والذكاء اللمّاح، والبديهة الحاضرة، والده العلاّمة السيد محسن الأمين من بلدة شقرا الجنوبية، أقام في سوريا، وكان مرجعاً شيعياً يُعتدّ به في لبنان وسوريا وباقي البلدان العربية حيث للطائفة الشيعية وجود، عُرِفَ عنه جِدُّه في محاربة الجهل والتخلف، وتصديه للجمود الفكري، وتشجيعه لانفتاح العقل الديني على شؤون الحياة المعاصرة، وفي هذه الحاضنة الدينية المنفتحة التي نشأ فيها ابنه عبد المطلب، كان للأخير هواه، ومزاجه، ودربه التي سلكها بوحي من قناعاته الخاصة، والتي طبعت شخصيته وأشعاره، وميزّت سيرته.

فقد ولد عبد المطّلب في دمشق، وعاش في زمان كانت سوريا ولبنان فيه يرزحان تحت سلطة الإنتداب الفرنسي، وهو بعدما أنهى دراسة الحقوق في سوريا، عمل في القضاء وفي الصحافة، وما لبث أن عُيّن بصفة مستشار في وزارة الخارجية السورية (وكان يحمل الجنسيتين اللبنانية والسورية كرامة لوالده العلاّمة الأمين الذي كان مقيماً في دمشق)، وفي الأربعينات، على ما

(١) إصدار خاص، بيروت.

أعتقد، تمّ تعيينه قائماً بأعمال سوريا لدى الاتحاد السوفييتي، في زمان كان فيه فياغسلاف مولوتوف وزيراً للخارجية الروسية. وقد استطاع عبد المطّلب بظرفه وخفة دمه، أن يؤدي دوراً في التقريب بين سوريا والاتحاد السوفييتي في ذلك الحين، وصولاً إلى تحرير سوريا من سلطة الانتداب... وأن يحظى فوق ذلك بقبعة مولوتوف الذي كان يلقب (بالمطرقة الحديدية) نظراً لصرامته وقساوته.. ولقبعة مولوتوف قصة ظريفة رواها لي في أحد لقاءاتنا في مقهى فاروق البيروتي.

كان مقهى فاروق يقع في بناية قدورة في محله عصّور، ساحة رياض الصلح حالياً، وكان على شاكلة مقهى أبو عفيف، ومقهى الحاجّ داوود وغيرهما من مقاهي بيروت القديمة، ملتقى لرجال النخبة من مثقفين وأدباء وشعراء وصحافيين، وكثيراً ما كنّا نأخذ زاوية في المقهى أنا والشاعر الكبير المرحوم عبد المطّلب، نتبادل فيها آخر الأخبار من سياسة وأدب وأشعار، وكان صاحبي نبعاً لا ينضب من الخبريات بحكم عمله في الصحافة وفي السلك الدبلوماسي، وحدث أن كنا نتداول يوماً في أخبار السياسة المحلية على عادة اللبنانيين حين يلتقون، وكان يعتمر يومذاك قبعة على رأسه فمازحته قائلاً: (هل هذه قبعة مولوتوف ؟ !) فابتسم وقال: (لا . هذه غيرها ولكن هل أتاك حديث مولوتوف؟) فقلت له: (سمعت طراطيش من هنا وهناك لكنك لم تخبرني!) فقال: (عندما عينتني الحكومة السورية قائماً بأعمال سوريا لدى الإتحاد السوفييتي واستلمت مهامي، لاحظت مع الوقت تحركاتي كلّها مراقبة من قبل جهاز المخابرات الروسية الـ (كي. جي. بي)، فحيث أكون يكونون، فضقت ذرعاً بهذه الرقابة، وساءلت نفسي، ألهذا

الحد تمثل خطراً يا عبد المطلب على هذه الدولة العظمى؟ وانتهى بي الأمر إلى أن طلبتُ في أحد الأيام مقابلة وزير الخارجية السوفييتي فياغسلاف مولوتوف، وكان تناهى إليَّ أنه ذو هيبة وصرامة، قد تستطيع أن تفك عقدة لسانه بالكلام، لكن عقدة حاجبيه لا يفكها ابن امرأة... فقلت في نفسي: (قوّي قلبك يا رجل، لكل عقدة حلاّل).. وكان أن حصلت على موعد بعد عدة محاولات مع الخارجية الروسية، وقبل أن يحلّ الميعاد المنتظر، شربت كأسَي فودكا سك، وتوجهت إلى مبنى الخارجية.. ولما أزفَّ الموعد، دخلت على الوزير الروسي بكل ثقة، وعرّفت عن نفسي قائلاً: (القائم بالأعمال السوري عبد المطلب الأمين)، فتأهل بي بشكل رسمي مصافحاً بيد قوية ، وكفّي بعدما سحبت يدي باتت (مطعوجة) من عزم يده، فقلت في نفسي: (لا حول ولا قوة إلاّ بالله، إذا كانت المصافحة على هذه الشاكلة فابشر يا رجل!)، وبعدما أشار إليّ بالجلوس واستقر بي المقام قبالته، بادرته بالقول وقد (حبكت معي): أحب أن أطمئنكم يا معالي الوزير إلى أن الجمهورية السورية، التي أمثلها في موسكو، تكنّ أصدق مشاعر الود والاحترام لاتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية، وأؤكد أمامكم أن بلادي ليست لديها أي نيّات توسعية تجاه بلدكم، ولا مطامع عدوانية من أي نوع.. وكان أن فرقعت ضحكة مجلجلة في أرجاء المكتب كقنبلة مولوتوف، وصار جسمه كله يهتز من الضحك، ثم عاد وسألني: (ماذا قلت؟ إن بلادكم لا نيّات توسعية لديها ضد الاتحاد السوفييتي؟)، ثم يتابع مقهقهاً، فجاريته في الضحك سعيداً بكسر وقار الجلسة، ومنتشياً بالتحدي الذي كسبته بفك عقدة حاجبيه، وبتقريب اسم بلادي الفتية إلى مسامع دولته العظمى، وفي

بادرة لم أتوقعها، نزع مولوتوف قبعته عن رأسه وأهداني إياها قائلاً: (هي عربون مودة وصداقة من دولتي إلى دولتكم..) فتناولتها منه وشكرته على بادرته اللطيفة، وتابعت القول: (أما بعد، وما دمتم معاليكم اطمأننتم إلى أننا لن نتعرض لدولتكم بأي اعتداء، فهلا أوعزت إلى جهاز الـ (كي.جي.بي) بالكف عن مراقبتي في حلي وترحالي؟)، فارتسمت على وجهه علامات الدهشة وقال لي مبتسماً: (ولماذا يراقبونك؟ على كل حال سأتحرى عن الأمر ولن تكون إلاّ راضياً)، فشكرته للمرة الثانية، وكان هذا اللقاء بداية لصداقة متينة توطّدت بيننا، بحيث صار اسمي ثابتاً على لائحة المدعوين من السلك الدبلوماسي في كل المناسبات التي كانت تقيمها الخارجية الروسية في تلك الفترة، وكان يحرص في خلال هذه المناسبات على مسايرتي، والسؤال عن أحوالي في موسكو، وأحوال بلدي، وكنت أرطّب أجواء الحديث بين الحين والآخر، بإلقاء بعض النكات التي كنت أسمعها من الشارع السوفييتي، فتفرقع ضحكته بين الموجودين).

ويتابع عبد المطلب سرد قصته مع مولوتوف فيقول: (على أن القصة لم تنته فصولاً عند هذا الحد، إذْ إنه بفضل صداقتنا، والثقة التي نشأت بيننا سرّب أمامي في أحد لقاءاتنا، وكان ذلك عام ١٩٤٥، عن وجود اتفاق بريطاني فرنسي تمّ بين خارجيتي البلدين، ويقضي بالإبقاء على وجود قوات البلدين في سوريا لمدة سنتين بشكل مبدئي، على أن يصار لاحقاً للنظر في أمر انسحابها تبعاً لمقتضيات الوضع، أثارني الخبر، فسألت مولوتوف إن كان بإمكان بلاده أن تعرقل الإتفاق المذكور، ضارباً في حديثي على وتر المبادئ التي يرفعها السوفييت حول حق الشعوب في تقرير المصير، ودور الاتحاد

السوفييتي في نصرة الشعوب المستضعفة والمستغلة من قوى الإمبريالية والاستعمار.. و.. إلى آخر هذه الترجومة، فابتسم مولوتوف لمحاضرتي في المبادئ الشيوعية، ولأسلوبي في تمرير المطالب السياسية، فهزّ برأسه مبتسماً وقال: (طمأنتني في بداية تعارفنا إلى أن ليس لدى سوريا مطامع توسعية بلدنا، فسأطمئنك إلى أننا لن نألو جهداً في إجهاض هذا الاتفاق!) وهذا ما حصل بالفعل، إذْ أوعز مولوتوف لاحقاً لمندوب بلاده في مجلس الأمن بممارسة حق النقض (الفيتو) ضد القرار البريطاني الفرنسي، وطلب من مجلس الأمن إصدار قرار بانسحاب القوات الفرنسية والبريطانية من سوريا فوراً، وصدر هذا القرار فعلاً بتاريخ ١٦ شباط (فبراير)، وترجم بعد شهرين بانسحاب الفرنسيين من سوريا بتاريخ ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٤٦، والذي صار فيما بعد عيداً لاستقلالها). وأكمل عبد المطلب: (هذه هي قصتنا يا صاحبي، ابتدأت بقبعة مولوتوف، وانتهت بانسحاب الفرنسيين من سوريا).

كانت لقاءاتي بعبد المطّلب تتكرر في مطارح كان يهواها ويكثر من التردد إليها مثل مقهى فاروق، ومقهى الحاوي في ساحة البرج، ومطعم دبيبو في الروشة، وفي مطعم الإتوال لصديقنا عبد الجليل وهبي، وكان يتردد معنا إلى هذه الأماكن أصدقاء مقرّبون نسهر سوياً بأجواء يلطفها عبد المطّلب بظرفه وخفة دمه، وكان من أفراد (الجوقة) الشاعر السوري الفذّ المرحوم خليل خوري، والملحن المرحوم سمير مجدي الذي لحن لي عدة قصائد، والملحن سهيل عرفة الذي لحن لي وللشاعر خليل خوري قصائد عديدة غنتها المطربة دلال الشمالي، منها قصيدة لخليل ذاع ومطلعها:

من قاسبونَ أُطلُّ يا وطني فأرى دمشقَ تُعانقُ السُحُبا

وانقطعت علاقتي بعبد المطّلب بعد سفره إلى الكويت، التي مارس فيها مهنة المحاماة لمدة لم تطل كثيراً، فاختار أن يعود إلى بيروت متفرّغاً للشعر والكتابة والترجمة، إلى أن توفاه الله عام ١٩٧٦ (١) ولم يكن بلغ الستين من عمره، فدفن في بلدته (شقرا) في جنوب لبنان. وأذكر يومذاك أن الإمام المغيّب السيد موسى الصدر بكى عندما أتاه نعيه وقال لي: (لقد خسرنا عالماً كبيراً)، وذهبت يومذاك بمعية الإمام الصدر إلى منزل شقيق المرحوم عبد المطّلب، الأديب الكبير المرحوم حسن الأمين للقيام بواجب التعزية.

وأختم هذه الصفحة بأبيات لعبد المطّلب يقول فيها:

تضاءل العمر وانهارت مهابتُهُ حتى استحال تساجيعاً وأوزانا

فاليومُ كالأمس إغفاءٌ على شجنٍ ويقظةٌ لا تعيرُ العمر آذانا

فلا الحياةُ ورودٌ بعده صدَدٌ ولا النهايةُ تبريرٌ لدنيانا

(١) انتقل الشاعر إلى جوار ربه بتاريخ ٣١/١٢/١٩٧٤م، لذلك اقتضى التنويه. (هاني)

عبد المطّلب الأمين في كتاب أديب الشيشكلي صاحب الانقلاب الثالث في سوريا[1]

لمؤلفه: هاني الخيّر

يذكر المحامي اللبناني الدكتور خالد مكّي في شهادة له وردت في كتاب (قتافيت شاعر وقائع معركة مع نزار قباني ص ١٥٢)، لمؤلفه الناقد اللبناني الأستاذ جهاد فاضل ما معناه:

... إن نزار قباني، وبين جميع شعراء العربية إطلاقاً، كان أول من امتدح دكتاتوراً عسكرياً، ثبت فيما بعد أنه كان أداة بيد قوى خارجية.. هو حسني الزعيم. وإذا كان نزار أهمل بذكاء وبحرص قصيدته فلم ينشرها في مجموعة من مجموعاته الشعرية، وهو الحريص على نشر كل ما يقوله نثراً أو شعراً، وأهملها لأسباب تتعلق بأن مملكة حسني الزعيم، لم تدم أكثر من أشهر.

ولكن القصيدة موجودة في عدد من أعداد جريدة النصر الدمشقية لصاحبها المرحوم وديع صيداوي. وموجودة ضبطاً في واحد من أعداد

(١) من منشورات مكتبة الشرق الجديد بدمشق، (جاجة وخير)، ط٣ بالتحديد، ١٩٩٥م.

الجريدة التي صدرت إبّان فترة الزعيم حسني، وعلى الصفحة الأولى وفي الزاوية السفلى إذا أسعفت الذاكرة. وليس في وسع نزار أن ينكر ذلك.

وإذا كان نزار قباني نسي قصيدته أو تناساها فلا يجب أن يتذكرها أو يذكّره بها أحد فنحن نذكّره بأنها عينية تتصل بها كاف ساكنة.

وأن نزاراً هو الذي يخاطب في بيتها الأخير حسني الزعيم قائلاً:

إن كنت، قديساً عبدت الهوى　　　أو كنت صمصاماً فما أروعك

أو شيئاً من هذا القبيل. وهي قصيدة لا تفصح عن رغبة نزار في أن يغازل العهد الجديد فحسب، وذلك لضمان الاستمرار في السلك الدبلوماسي، أنها تفصح كذلك عن استعداد نزار لأن يطعن من صنعوه دبلوماسياً بمجرد أن أسقطهم حسني الزعيم.[1]

دون أن نتحدث هنا عن استعدادات أخرى، كأن يذهب نزار إلى وزير خارجيته نفسه فيطلب إليه كتابة مقدمة لمجموعة شعرية له، فيكتبها الرجل، الذي ما يلبث أن يصطاد في شبكة مؤامرت حلف بغداد، ويحكم عليه ويدان، دون أن يتهم أحداً نزاراً بأنه قادر على الانزلاق الفذ مع مصالحه ولو آنيا.[2]

(١) حكم سورية كرئيس للجمهورية ١٣٧ يوماً، وبعد ذلك أعدم حسني الزعيم في انقلاب عسكري مع رئيس وزرائه محسن البرازي في حوالى الساعة الثالثة والربع من فجر ١٤ آب (أغسطس) العام ١٩٤٩.

(٢) قنافيت شاعر.. دار الشروق، القاهرة. (هاني)

وفي هذا الشأن يقول عبد المطلب الأمين، الذي تمرد على انقلاب حسني الزعيم فأقاله من وزارة الخارجية، في قصيدته التي حملت اسم: (في رثاء طاغية وكل طاغية):

....

....

قل: ما انقلابك؟ أيُّ أمر جدّ فيه من الأمور .

الملح ملحك لم يزل ترباً وخبزك من شعير.

عبد المطلب الأمين
في كتاب شخصيات سورية
في القرن العشرين ج٢ [1]

لمؤلفه: هاني الخيّر

شاعر ودبلوماسي ولد في دمشق ١٩١٦م، وهو نجل العلاّمة الكبير السيد محسن الأمين، الفقيه المعروف في العالمين العربي والإسلامي.

في هذا البيت العريق نشأ، ونشأت معه الوطنية في أبهى صورها وحب الشعب. وقد أتم دراسته بمختلف مراحلها في دمشق، وحمل شهادة الحقوق في جامعتها العريقة.

عُيّن مدرّساً في دار المعلمين الريفية في بغداد، شأنه شأن الشاعر العربي السوري الكبير بدوي الجبل. ثم عُيّن مستشاراً في وزارة الخارجية السورية أول إنشائها، ثم قائماً بأعمال السفارة السورية في موسكو، وله هناك حضوره الدبلوماسي المتميز. ثم نقل إلى وزارة الخارجية بدمشق.

تمرد على انقلاب حسني الزعيم، وهجاه بقصيدة شهيرة دامغة، فأقاله الزعيم من وزارة الخارجية... ما دفعه للانتقال إلى بيروت، فعيّن بعد حين قاضياً في المحاكم المدنية واستمر عدة سنوات.

(١) من منشورات دار الفتاة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.

انصرف في سنواته الأخيرة إلى الكتابة والترجمة، ولا سيما أنه كان يجيد اللغات: الفرنسية، الإنكليزية، الروسية، والألمانية.

شعره يقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة: شعر ذاتي وجداني، فيه الغربة والقلق الوجودي في صحراء هذه الحياة، وشعر المناسبات الدينية والمراثي الشخصية، فضلاً عن شعر قومي يعبّر عن ضمير الأمة العربية المكافحة.

توفي في بيروت ١٩٧٤ م، ودفن في بلدة (شقراء) في جبل عامل.

الشاعر الراحل متزوج من السيدة سنيه الحاج. وله من الأولاد ثلاثة هم: المحامي محسن الأمين، والسيدة أم البنين حيث أطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم والدته وتكريماً لها، والسيدة سوزان.

عبد المطلب الأمين
في كتاب شعراء لبنانيّون رحلوا [1]

لمؤلفه: د. ميشال خليل جحا

..... ديوانه الذي (أصدره العام ١٩٧٦ شقيقه الأكبر العلاّمة حسن الأمين) صغير الحجم ولا يضم كل شعره بل بعض مختارات منه. وهو يقسم إلى ثلاثة أقسام الأول عنوانه: (السفر في الجرح والغربة) (الزمن، والحب والألم). والثاني: (اتجاه وموقف) (الوطن، والعالم، والتاريخ). والقسم الثالث: (على المفترق الأبدي!) (الأب، الأم، القريب، الصديق) وهو في الرثاء.

نظم في أغلب فنون الشعر، كالغزل والرثاء والوصف والوطنيات. وله في الشعر السياسي حيث يقول عن الانقلاب الذي حصل في سوريا أثناء حكم حسني الزعيم:

يا بؤس هذا الانقلاب وذل هذا المنقلب

ماذا تبدّل غير توزيع المناصب والرتب

(١) من منشورات دار نلسن، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

كما إنه يسخر من هزيمة ١٩٦٧ التي سمّوها نكسة، بينما هي هزيمة نكراء. وينظم في بور سعيد رمز العدوان الثلاثي على مصر الذي قامت به إنكلترا وفرنسا و(إسرائيل) سنة ١٩٥٦. ولا ينسى غسّان كنفاني الكاتب الفلسطيني الذي اغتالته (إسرائيل) في لبنان سنة ١٩٧٢ وثورة اكتوبر في الاتحاد السوفييتي وهو الذي كان أول ممثل لسوريا في موسكو.

والشاعر يحلو له أن يتفلسف ويطرح الأسئلة ماهو مصيره؟ ولماذا خلق؟ وما الهدف من الحياة. دون أن ينتظر جواباً على أسئلته:

إلى أين يمضي بنا ركبنا عنيفاً لجوجاً على عمرنا
وحتّام يعصف فينا القضاء وتودي الرياح بأسمالنا
أكنّا من الكون ألعوبة وهل أُبدع الكون إلاّ لنا

....

....

....

عبد المطلب الأمين
في كتاب مستدركات أعيان الشيعة
الجزء الأول [1]

لمؤلفه: حسن الأمين

مرّت ترجمته في المجلد الثامن الصفحة ١٠١ وهنا دراسة عنه بقلم الأستاذ محمد علي مقلد.

تنويه:

منعاً للتكرار.. بإمكان القارئ الكريم الإطلاع على هذه الدراسة الأدبية النقدية الهامة في بداية هذا الفصل.

(١) الصادر في بيروت.

عبد المطلب الأمين
في كتاب شعراء راحلون من جنوب لبنان[1]

بقلم: محمد زينو شومان

إشراف وتقديم: حبيب صادق

يقول حسين مروة في تقديمه للمجموعة المختارة الباقية للشاعر عبد المطلب الأمين:

(كتبت هذه الكلمات - المقدمة - بمعاناة قاسية.. كان حضور عبد المطلب كاملاً: حديثه، وجهه، ضحكته الحلوة - المرة (جرحه) ألمه (العميق) الملهم.. وهنا قسوة المعاناة..).

لقد اخترت هذه الفقرة من كلام مروة، وفيها ما فيها من صدق القول وأثر الحزن والفراغ اللذين خلفهما رحيل عبد المطلب الأمين.

والدكتور حسين مروة هو حامل مبضع النقد، بَقر سُرّة التراث العربي، منقباً في سراديبه المتشعبة والمتشابكة الممتدة كامتداد أنفاق المناجذ، تنقيب عالم الآثار في باطن الأرض، أو الحفّارين في مناجم الفحم الحجري والمعادن. ولم يخرج من هنالك إلاّ باستكشاف النزعات المادية في هذا التراث.

(١) من منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت، ٢٠١٠م.

فعن أي غائب يتحدث مروة؟

منْ هو ذلك الضاحك - الحزين المقهقه حتى ظهور نتوءات الأسى في سقف حلقه؟ الفاغر فمه على مصراعيه لتتراءى صخور الألم الدهرية خلف البلعوم والحنجرة.. هناك في مغاور الداخل!

الحقيقة أنني حين جئت لأتعرَّف إلى عبد المطلب صاحب (الجرح) والألم (العميق) الملهم لم أجد أثراً مطبوعاً لا فوق رفوف المكتبات ولا تحتها ولا عند أحد. أما الوثيقة اليتيمة الباقية التي حصلت عليها فهي نسخة مصوّرة تنبئ من خلال شكلها المتواضع وعريها، عن مدى حرص الذي يحتفظ بها حرصه على كنز انتشل تواً من يد لص هو النسيان، وكأنما هو خائف عليه أن يُفقد ثانية. ذلك هو الصديق الكبير الأستاذ حبيب صادق الذي لم يزل في عزّ نشاطه السبعيني يتابع بنفسه شؤون تنظيم ورش الندوات خطوة خطوة.

عبد المطلب الأمين.. هل نعود إليك نسائلك عن مفتاح البيت ومفتاح أشعارك وأحزانك الضائع؟

هل جئنا لاستذكار مواجعنا ونبش نواويس المعاناة؟

هل نفتح كيس الجنوب ونبعثر آلامنا وفجائعنا أمام الناس؟ هل نتحدث عن بؤسنا الثقافي: عن الإهمال وغض نظر الدولة وأصحاب الأموال والثروات والقابضين على أرزاق الناس وخناقهم، التاركين كنوزنا وثرواتنا الأدبية والشعرية في هذا العراء كقطع النحاس القديمة يفتك بها الصدأ.. ولا من يسأل عن إنشاء متحف أدبي لجمع ما تبقى من إرث الشعراء، وهزات الزلازل تسابق رفات جفونها جفوننا ؟

عفواً عبد المطلب إذا هدرت شقشقتنا ونحن أمام الباب الجنوبي.

وكيف نقوى على مغافلة الذكريات ونحن نقلب صفحات الجنوب شجرة شجرة وحجراً حجراً ونهراً نهراً.

أتسمعنا من خلف الباب يا عبد المطلب؟

ما هذا الشوق الذي شاخ وشخنا ولم نجد له حلاً ؟

كم نحن في أمسّ الحاجة إلى هذا الفضاء الواسع، إلى قمصان واسعة كمثل هذا الفضاء لتسمح بالطيران لنا ولفقاقيع رغوة القلوب المغسولة، التي كلما غسلناها غطّت وجوهنا رغوة (النوستالجيا) وغرقنا، حتى قمم الرؤوس الجرداء أو المغطاة بثلوج الوجع والشيب في جرن العذاب!

عفواً، مرة أخرى، عبد المطلب.

هذا هو حضورك الصاخب عاد ليملأ هذا المكان.

هل لمستنا بإصبع توما فتفجَّر القيح ؟!

لقد جئنا لنتكلَّم عن غيابك وشجونك فإذا بك تتكلَّم عن غيابنا وشجوننا.

فمَنْ يا تُرى صاحب المناسبة؟

نعود إلى التساؤل عن سيرتك وأحوالك وتحوّلاتك والسلالم التي ارتقيتها ثم انكسرت بك جميعاً. بعضها تحت وطأة همومك ومعاناتك، وبعضها الآخر من غدرات الزمان والمجتمع اللامبالي وظلم ذوي القربى

وذوي السلطة. الذين في أيديهم مفاتيح الفردوس وأقفاله وعلم الأرحام القبلية والطائفية والمذهبية وعلم الفتن وأهوالها وعلم الكذب والنفاق.

سيرة ناقصة...

يروي مجايلو عبد المطلب وبعض متناقلي أشتات سيرته وأخباره أنه كان يضج حيوية ويشعّ من داخله توهّج كتوهُج البرق، له قوة الجذب المغناطيسي. وأنّه كان شخصية باهرة كفيلة بجعله قطب المجالس والحلقات والحوارات فحيثما مال مالت معه الرؤوس والأنظار والأسماع.

لقد وُلد عبد المطلب في دمشق في العام ١٩١٦ ونشأ في كنف والده المرجع الديني الكبير السيد محسن الأمين الذي كان مقيماً آنذاك في عقر بلاد الشام.

وفي دمشق قضى عبد المطلب نشأته الأولى وتدرَّج في مراحل الدراسة حتى دخول الجامعة والتخرّج حائزاً إجازة في الحقوق سنة ١٩٣٩.

ولم يكن عبد المطلب المتطلع إلى البعيد، والذي تجيش بين جوانحه قوى جبارة وصاحب المزاج المرح الصافي المتوثّب والألمعيّة الفائضة والطموح المتوقّد كقضيب المعدن الساخن ليقنع بالأمر السهل. فهو قد خُلق للمهام الصعبة، وللتحليق في بقاع الأرض، وما عليه إلاّ أن يهمَّ بالإقلاع ليحمله براق الطموح إلى حيث امتدَّ بصره.

لقد كان لدى عبد المطلب من الحماسة والاستعداد الفطري والنفسي ما يَثقُلُ وزنُه، وما يوازي بلغة الأرقام والفيزياء كذا وكذا كيلو واط من الطاقة

الكهربائية. وقد ابتدأ مسيرته الحياتية على غير عادة المبتدئين والمتدرّجين والموظفين الصغار؛ لقد بدأ من فوق من آخر درجات السلم الوظيفي لا من الدرجة الأولى كما تقتضي قوانين العمل.

فقد نجح في اختيار الدخول إلى وزارة الخارجية السورية التي كانت آنئذٍ في طور التأسيس، وقيل إنَّه كان من مؤسسّيها الأوائل. وإذا به بين عشية وضحاه موظف في وزارة الخارجية وعضو في السلك الدبلوماسي وقد اختير ليكون أول رئيس للبعثة الدبلوماسية السورية في الاتحاد السوفياتي.

فكأنّما عبد المطلب الأمين لم يكن طالب وظائف بل خائضَ مغامرات، ولكنَّ حبل الحظ كان قصيراً. فإذا بحسني الزعيم قائد أول انقلاب عسكري في سوريا يُقيل عبد المطلب من منصبه لاحتجاجه على هذا الانقلاب. فانتقل إلى وزارة الدفاع ليتولى رئاسة قسم التوجيه فيها، وليستمر في عمله في سوريا حتى حرب ١٩٦٧.

وفي أثناء وجوده في سوريا، كان عبد المطلب ينشر بعض كتاباته وقصائده في الصحف السورية، متابعاً الحركة الشعرية وقارئاً الأدب العربي والتراث الشعريّ القديم، ومطّلعاً على آداب الغرب وثقافته من منابعها الأولى، إذ كان يجيد ويتقن عدداً من اللغات الأجنبية هي الفرنسية والإنكليزية والفارسية والروسية.

وبعد مغادرته دمشق وهَجْرِ العمل الدبلوماسي والسياسي تنقَّل في كل من الكويت والعراق حيث مارس المحاماة في الكويت، ومهنة التعليم في العراق مدرّساً في دار المعلمين الريفية في بغداد.

وحين عودته إلى وطنه لبنان، تولّى عبد المطلب منصباً قضائياً قبل أن يدخل المرحلة الأخيرة من عمره، التي أمضاها في شبه إقامة جبرية تقريباً موزّعاً وقته وهمومه المتراكمة ومعاناته ما بين منزله في منطقة النهر في بيروت وقريته الجنوبية: شقرا.

هذا هو الموجز المختصر جداً لحياة الشاعر عبد المطلب الأمين حاولت أن أضغطه قدر الإمكان ليكون أقرب إلى ميكروفيلم شاعراً بأنني كمَنْ يُدخل جمل الحياة في ثقب إبرة، أو كالسينمائي الذي يضغط أحداث فيلم برمّتها في شريط بحجم الكف.

لذلك لا أزعم أنّني وفّيت الشاعر حقّه، ولا استطعت أن ألتقط لا بعيني ولا بعين قلمي ولا بعين الكاميرا تفاصيل الحياة التي عاشها عبد المطلب لأنَّ بعضها كما أظن أبعدُ من حدود الرؤية.

ولعلّي لا أستطيع أن أصف الوحشة القاسية التي كابدها عبد المطلب في ساعاته الأخيرة، وفي ذلك الركن القصي من هذا الوطن ومن هذا العالم الذي لجأ إليه لجوء الأسد الجريح إلى عرينه، غريباً، متألّماً، عارياً إلاَّ من ورقة الشعر التي تكشف ولا تستر.

ولذلك سأستعيد هنا بعض ما قاله محمد شرارة: عبد المطلب الأمين، الشاعر الحساس، الذي فقده الأدب العاملي خصوصاً والأدب العربي عموماً، هو واحد من أبرز أدباء جبل عامل (الجنوب)، وواحد من ألمع شبابه الذين غنّوا بؤسه وواكبوا انتفاضاته، وأسهموا في بذر بذور ثورته على الإقطاع والتخلُّف والرجعية.

غاب هذا الشاعر الإنسان بصمت، كما عاش أيامه الأخيرة بعيداً عن دائرة الضوء. ولكن الذين سيدرسون تاريخ الجنوب بالغد، سيرون أنه كان في قلب الحدث الثوري الصاخب.

ويقول زهير مارديني أيضاً: كان عبد المطلب رجلاً يعيش خارج جسده.. ككل الشعراء الذين لا يعرضون بضاعتهم في سوق نخاسة الشعر، كان شعوره هو سر شقائه ومعاناته.

نستخلص من هاتين الشهادتين كم كان الشاعر عبد المطلب الأمين مترفعاً عن سفاسف الحياة، عفيف النفس، زاهداً في المناصب والألقاب وفي بهارج الدنيا وعذاباتها وملذّاتها ونعيمها ونعمائها ومطامعها التي لا تنتهي.

النتاج الضائع

يُقال إن معظم النتاج الشعري لعبد المطلب الأمين قد اندثر. وليس هناك من معلومات واضحة عن أسباب فقدان هذا النتاج إلاّ ماهو متناقل مشافهة عن ضياع الكثير من قصائد عبد المطلب التي كان ينشرها في الصحف السورية آنذاك. ويُقال أيضاً إنّ عبد المطلب لم يكن ليهتم بحفظ أشعاره التي تذهب الروايات إلى أنه كان غزير الإنتاج، ولم يكن يرى حرجاً في الكتابة حتى على علبة السجائر التي يحملها حالما تباغته الحالة الشعرية، سواء أكان في سيارة أم في مقهى أم في أي مكان آخر!

ومهما تكن الظروف أو الأسباب التي لم تحمل عبد المطلب على جمع شعره، فهي ستبقى محيّرة ومدعاة للتعجُّب والاستغراب.

أما ما نجا من تلك الأشعار فمجموعة قليلة جداً من قصائده التي تولَّى جمعها شقيقه المؤرّخ حسن الأمين وأصدرها في كتاب صغير الحجم عن المطبعة العاملية في بيروت في العام ١٩٧٦، وذلك بعد وفاة عبد المطلب بنحو سنتين تقريباً.

وقيل إنَّ القصائد التي استبعدها السيّد حسن وأعمل فيها مقصه الحاد نتيجة مخالفتها لذائقته الكلاسيكية وشروطه الإيمانية والدينية والأخلاقية الصارمة، هي الأكثر تعبيراً عن منحى عبد المطلب الاجتماعي والثوري والتهكمي والوجودي.

وقد حلَّت عليها اللعنة لأنَّها تنتمي إلى مدرسة الشعر الخمري التي تعكس بصدق منزع عبد المطلب التحرري، وحسّه النقدي الكاريكاتيري الذي تجلَّى في قصائده الساخرة التي كان يعارض بها بعض قصائد الشعراء المشهورة كقصيدة سعيد عقل عن القدس التي غنَّتها فيروز. وقد ذاع صيت هذه القصيدة المعارضة وراحت تتردد على ألسنة جيل تلك الحقبة الناقم والغاضب والمتمرد لما كانت تنطوي عليه من نقد لاذع وسخرية مريرة.

وبذلك، فالظلم الذي تعرّض له عبد المطلب ظلم ثلاثي الأبعاد: مرة بانفضاض الندامى والمجتمع عنه في الهزيع الأخير من حياته، ومرَّة أخرى بعد مماته بموت أشعاره الخارجة من معطف مرارته وألمه إمَّا غرقاً في لجَّة الصحف والإهمال والنسيان، وإمَّا ذبحاً على حاجز الرقابة وسلطة التحريم والتأثيم. وهنالك ظلم ثالث يتمثَّل بإغفال عبد المطلب وشعره من قبل الباحثين والمهتمين بقضايا الشعر والتراث الأدبي والثقافي.

وكل ما ناله من نصيب متأخر هو محاضرة ألقاها د.محمد علي مقلّد في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ببيروت تناولت شعره وحياته منذ رحيله، وقد نُشرت في كتاب (وجوه ثقافية من الجنوب) الذي أصدره المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عن دار ابن خلدون في العام ١٩٨١.

النزعات الأساسية في شعر الأمين:

تستوقف القارئ لشعر عبد المطلب الأمين عدة اتجاهات أو نزعات تعبّر عن رؤيته الشعرية، مثلما هي تشير في الوقت نفسه إلى القضايا المهيمنة على شعره والتوجهات والهموم الرئيسية المرتبطة بثقافته وميوله وانتمائه الفكري وتأثره بمعاناة الكادحين المقهورين المكافحين من أجل الرغيف والتخلّص من سياسة التمييز واللامساواة.

ومن هذه النزعات:

النزعة الحماسية أو الوطنية - الثورية

وهي نزعة بارزة في شعره تضرب عميقاً في المركّب الثقافي - الفكري - السياسي - الأيديولوجي للشاعر تتجلى في قوله:

لا شيء إلاَّ الشعب حيٌّ خالدٌ ... والباقيات سفاسف وفناءُ
كل الطغاة على تراب نعاله ... تهوي وتُسحق رُمَّة شوهاءُ
لو يقرأ التاريخ طاغيةٌ لما ... عصفت بتافه عقله الخيلاءُ
قُل للطغاة السادرين بغيهم ... حان القطاف أأرغموا أم شاؤوا

نلاحظ في هذه الأبيات عنفوان الشاعر الذي يتفجَّر غيظاً وحمماً، مرتكزاً في ثورته هذه على إيمان عميق بانتصار الشعب في معركته الأزلية مع الطاغية أو الحاكم الأوحد، الذي لتضخم أناه ونرجسيته القاتلة لا يرى صورته الحقيقية في المرآة، وإلاَّ لكان تحسَّس تفاهته وضموره الفكري، ولأيقن أن لا خلود إلاَّ للشعب لأنَّه المنتصر حتماً مهما امتدَّ الشوط في مقارعة الطغيان، وأنَّ مآل الطغاة هو الزوال متى حان القطاف.

وهي عبارة تدل على حتمية السقوط، وأنَّ دور الباغي آتٍ مع حلول أوانه أو موسمه. وهذا ما يُستدل عليه من لفظة (القطاف)، والمعروف أنّ القطاف خاص بالثمار، وللثمار موسم أو فصل زمني لكي تنضج وتصبح صالحة للقطاف. وهي هنا تحيل على عملية القطع التي تنتظر رؤوس الطغاة بعدما تنضج هذه الرؤوس في أوانها أي في الفصل المخصَّص لها وهو فصل الثورة.

وبموجب هذا المنحى التحليلي يقسم الشاعر الزمن أيضاً إلى مواسم، مما يلمّح إلى ضرورة الربط بين زمن طبيعي - فيزيائي - تتحكم فيه قوانين الطبيعة وزمن بشري تتحكَّم فيه إرادة الثوار إذا ما اتبعوا منهجية تقسيم الزمن الثوري إلى مواسم. وتبعاً لهذه السيرورة الإنسانية - التاريخية - النضالية، ما على الثوار إلاَّ أن يستغلوا فصل الحراثة ليبذروا بذور الثورة في أثلام الشعب، ليحصدوا بعد ذلك الموسم الوفير من جماجم الطغاة والمستبدّين في فصل الحصاد!

وقل الأمر نفسه إذا ما ارتأيت أن تقيس هذه القوانين على الشجر لا القمح، فالنتيجة في كلا التصورين واحدة سواء حصلت على رأس الدكتاتور عبر القطاف أو الحصاد.

ولنلاحظ في تركيزه على قدرة الشعب كيف أنّه يجعل منه هو صاحب القضية وهو صاحب الخيار المطلق في تحديد مصيره. بل إنّه يحمّله المسؤولية الكاملة عن هذا المصير لأنه هو من يمتلك الحل، وإليه يعود زمام المبادرة لتغيير مسيرة الزمن باتجاه المجتمع البديل الأفضل. أي حسب قول الشاعر هو الجريح وهو مالك الدواء:

يا شعب جرحك في يديك وبين كفّيك الدواءُ

وفي قصيدة أخرى كتبها في عهد حسني الزعيم في سنة ١٩٤٩ عنوانها (في رثاء طاغية وكل طاغية)، تشتد نبرته وتعلو أكثر في وجه المستبد من دون تمييز بينه وبين سلالة المستبدين على مدى العصور، جاعلاً ظهره أبداً إلى ظهر الشعب مستظهراً به ومتنبئاً بسقوط الطاغية مهما بدّل من جلود الفرعون فمصيره لا محالة إلى الزوال وبئس المصير. يقول عبد المطلب ملمّحاً إلى الزعيم:

أحياة حبس في سجونك أم نزول في القبور؟

قد كان قبلك من طغوا هلاّ سألت عن المصير؟

جدُّوا وأسرع سيرهم لكن إلى شوط قصير

الشعب مدّ لهم إلى يومٍ عبوسٍ قمطرير

والزعيم هو الذي كان قد عاقب عبد المطلب الأمين على عدم رضاه عن سياسته وعهده الانقلابي الأول الذي مهّد الطريق أمام العسكر في بعض الأنظمة العربية للوصول إلى (جنة السلطة) عبر أكل تفاحة آدم (الحنجرة)، ليصبح ذلك نهجاً سرمدياً لأمثاله لطرد آكلي تفاحة الديمقراطية من ذلك

الفردوس إلى جحيم الدولة ومعتقلاتها، التي تحوّلت إلى أقفاص للثوار ومصدر استمتاع للديكتاتور الذي كلما اشتاق إلى طير في قفص، أمر بإحضار أقفاص الثوار للتفرُّج والاستماع إلى أنين المعذّبين عوضاً عن أغاني الطيور!

ويهزأ الشاعر من المناصب التي تتحول إلى أدوات استغلال بيد السلطان الجائر الذي ينتهك الكرامات وينحر القيم والمبادئ، ولا يتورَّع أبداً عن اللجوء إلى أساليب الغدر والتضليل لحمل الناس على الخضوع، جاعلاً من كرسيه أشبه بشرك لاصطياد المرائين والأنصار وبأي ثمن من الأثمان أو طريقة من الطرائق. فيقول:

شرف المناصب أن تطأطئ للذي للشعب طأطأ رأسه مختارا
لا من أقام على قمامة رأسه كرسيه يتصيَّد الأنصارا

نزعة التهكُّم والسخرية

ما يُشاع عن عبد المطلب الأمين الظرف وحب الدعابة والسخرية. وهي ظاهرة تستوجب التأمُّل لما كان يتنازعه من أضداد، فهل كانت الظرافة سوى قناع خارجي يخفي ألماً داخلياً كان حريصاً على عدم إطلاع أحد على هذا السر الدفين، كحرص صاحب بئر على أن تبقى فوهتها مغطاة وبعيدة عن أنظار المتطفلين والدخلاء العابثين بأسرار الناس؟

لقد تميَّز عبد المطلب الأمين بحسّه الفكاهي وطبعه الدمث وسرعة البديهة وقوة العارضة وتوقُّد الذهن، مستقبلاً الندماء والأصحاب ببشاشة ومرح، قابضاً على زمام الأحاديث، لا (يعلو) صوت فوق صوته إذا غضب أو رغب.

وظاهرة كهذه إنّما تدل على ذكاء وعمق ثقافي وثقة بالنفس وتمتُّع بملكة التأثير حتى لكأنّه القطب المغناطيسي الذي يجتذب معادن الجلساء ويأسرهم بملكة المفاكهة والمزاح. وتتجلّى هذه النزعة التهكّمية لدى الأمين في قصائده التي تعكس روحه المرحة، فلنسمعه في قصيدة (انقلاب):

يا بؤس هذا الانقلاب وذل هذا المنقلب
ماذا تبدَّل غير توزيع المناصب والرُّتَب ؟
ماذا استجدَّ سوى التذمُّر والبطالة والشَّغب؟
مازال يحكم مَنْ تجسَّس واستغلَّ ومَنْ نهب
إنْ يقطعوا ذنباً من الأفعى فقد ولوا ذنب

ويطرق فن المعارضة أيضاً في قصيدة كتبها بعد هزيمة ١٩٦٧ معارضاً بها قصيدة للشاعر أحمد شوقي مطلعها:

قُمْ ناجِ جلَّق وانشد رسم مَنْ بانوا ... مشت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ

فيقول الأمين:

نَمْ وانسَ جلَّق واندُبْ حظَّ مَنْ هانوا ... على الأرائك أطفالٌ وغلمانُ
مررت في معرض التاريخ أسأله ... هل للعروبة في البازار دُكّانُ؟
ما نحن في معرض التاريخ: أقفيةٌ ... أمْ أنّنا قيمٌ تسمو وإنسانُ

النزعة الاجتماعية - الطبقية

لهذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين منطلقاتها الفكرية التي تعبّر عن رؤية واضحة لا تقبل الخلط بين اللونين المتعارضين الأبيض

والأسود، فإمَّا في هذا الفسطاس الطبقي وإما في ذلك. ومثل هذا الفرز البيّن لا يمكن أن يتأتّى إلاَّ عن إعطاء اللون الاجتماعي - الطبقي بُعده الصراعي في الخصومة الحتمية بين الظالم والمظلوم . وفي مثل هذا الوضوح الرؤيوي والتمييز الصارم بين النقيضين الاجتماعيين، يتجلَّى موقف الشاعر الحاسم لأيّ جدلٍ مهما تكن أسبابه وغاياته، وذلك بالوقوف إلى جانب المستغَل ضد المستغِل. وهو موقف يأتي في سياق ثورة عبد المطلب الأمين على الإقطاع السياسي الذي كان سائداً في عصره، وما كان يمثّل وقتئذٍ من محتوى اجتماعي وثقافي ومادي وسياسي واقتصادي. ومثل هذا الواقع الذي كان يكرّس حالة التخلُّف والانشقاق الاجتماعي والغُبن المادي - السياسي بأبشع صوره وأساليبه ووجوهه التنكُّرية، والذي كان مصدر المعاناة للشاعر، لم يتبدَّل منه حتى يومنا هذا إلاَّ الاسم وبقي المُسمَّى وحده إلى حين تبيضُّ ولو ريشة واحدة من غراب هذا النظام الطائفي - الإقطاعي، الذي لابديل عنه لبناء الدولة الحديثة المعاصرة - دولة المؤسسات والقوانين المدنية، ولتحقيق إنسانية الفرد - المواطن، إلاَّ بقيام المجتمع المدني - الديمقراطي العلماني.

واستناداً إلى رؤية عبد المطلب الأمين الثورية، فإنَّ الصراع الاجتماعي محسوم لمصلحة المعدم في مواجهة المُتخَم. وهي رؤية قائمة على الإيمان بقدرة الإنسان على صُنع مصيره بإرادته الحرّة:

وأؤمِنُ بالإنسان قدرة خالقٍ وتجسيد إبداعٍ ورمز تقدُّم
وثورة مسحوقٍ وعزَّة ثائرٍ وسحقة متخومٍ بأقدامِ مُعدم

النزعة التأمُّلية الفلسفية

تتبدَّى مثل هذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين عبر ومضات خاطفة خصوصاً في قصيدته «الجواب المريب» التي أقتطف بعضاً من أبياتها للتدليل على ذلك:

إلى أين يمضي بنا ركبنا ... عنيفاً لجوجاً على عمرنا
وحتَّامَ يعصف فينا القضاء ... وتودي الرياحُ بأسمالنا
ومَنْ ذا يُجيبُ على سؤلنا ... أصمتُ المقادير أم صمتنا
مللنا انتظار الجواب المريب ... فكنَّا الجواب على سؤلنا

مع جهلنا لتحديد تاريخ كتابة هذه القصيدة لسببين: عدم معرفة مقدار الجزء الضائع من شعر عبد المطلب الأمين من جهة، وعدم معرفة التسلسل الزمني للقصائد الباقية التي هي موضوع هذا البحث، أرجِّح أنَّ تاريخ كتابتها أقرب إلى المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر، لأبني على هذا الاحتمال استنتاجاً بأنَّ هذه الأبيات إنَّما تعكس ما بدأ بالتسلُّل إلى نفسه من إحساس بالانكسار والخيبة، بُعيد الابتعاد أكثر فأكثر من العالم الخارجي، والاستغراق في هواجس الذات وشؤون الباطن، وانكشاف زيف الواقع الخارجي، وصخب الشعارات الخادعة التي بسقوطها المدوّي تصمُّ الآذان. وذلك ما يمكن تلمُّسه من خلال هذه القصيدة نفسها:

ونحن الكبار بآمالهم ... صغارٌ بخيباتِ آمالنا
صغارٌ لأنَّا بعرف الحياة ... نُفلسف إسفاف أوهامنا

النزعة الرومانسية والغزلية

يُستدل على معالم الاتجاه الرومانسي لدى عبد المطلب الأمين، من خلال عناوين قصائده والموضوعات التي تنتمي إلى القاموس الخاص بالمدرسة الرومانسية. فهناك الشكوى والعتاب والتوجُّع وتحطُّم العالم الذي لا منجى منه إلاَّ في الفرار من الخارج، والاعتصام من هذا الطوفان المدمّر ليس بفلك نوح، بل بفلك الداخل لأنَّه هو جبل (الجودي) العاصم من الغرق.

فإذا بالشاعر ليس (إلاَّ مجترّ آهات) كما يقول:

أجترُّ آهاتي وأعصرُ مُهجتي ... أقتاتُ من جودِ السراب المُعدِمِ
لم يبقَ لي إلاَّ الكؤوس نواصراً ... وبلاسماً في مهجتي في أعظمي

فهل هناك أعظم من هذا البلاء حين لا يبقى من بلسم سوى الكؤوس؟ وماذا تُرى تحتوي هذه الكؤوس لتبقى هي الوحيدة مصدر العلاج والشفاء؟

أما في الغزل فلنا شواهد يمكن تعقُّبها في زوايا متفرّقة من قصائد الأمين ومنها:

والنَّهدُ في عين الأنامل جمرةٌ ... وعلى الشفاه تصوُّفٌ وتحسّرُ
ومع العيونِ إذا سما رُمَّانةٌ ... تختالُ في أخواتها تتبخترُ

ومن قصيدة أخرى نقتطع هذه الأبيات:

عودي ولا تصغي لمرِّ شكاتي ... فلقد حبستُ على الهوى زفراتي

شفتي وكأسُكِ ظامئان فهلّلي   للماجنَيْن: الخمرِ والقبلات
وتخيّري لحن الخلود تصوغه   شفةُ الشباب وأنملُ الشّهواتِ

وفي باب الغزل أمثلة أخرى أيضاً منها:

محمومة الشفتين لو نطق الدمُ   لم يعد ما تهذي به وتتمتمُ
آمنتُ بالظمأ الذي لا يرتوي   وفَتنتُ بالثّغر الذي لايبسمُ
هو في لماكِ لبانةٌ منهومةٌ   وعلى شفاهكِ شهوةٌ تتكلمُ

النزعة الوجودية – البوهيمية

عُرف عن عبد المطلب الأمين أنه كان كتلة متوهجة من النشاط والطموح، منتهجاً في الحياة على المستوى الشخصي مسلكاً وجودياً يجسّد مفهوم الوجوديين الذي يرى أنَّ الوجود ليس هبة تُمنح من أحد، ولا معطى خارجياً، بل هو تجربة ذاتية تقوم على الممارسة الحرة والاختيار الحر بعيداً عن الرقابة الخارجية التي ليست سوى جلاّد الذات الذي يستوجب حضوره، جدلاً، حضور الضحية.

وأصدق ما يمثّل هذا الاتجاه هو هذه الأبيات:

أنا مَنْ منحتُ العمرَ إكسيرَ الهنا   من فيض بوهيميتي المترامي
فلسفتُ هذا العمر فلسفةَ الأُلى   عرفوه معرفة الشريد الظامي
في حانتي في وحشتي وظلامي   في زحمة الأسقام والآلام

هبّت على القلب الرضيع نُسيمةٌ للذكريات عطورها بعظامي
فاستيقظ القلب الملول وضاع في صمت السعادة واقع الأيام
ومضيتُ أجترُّ الزمان ورفده وصداه والموؤود من أحلامي

النزعة الإنسانية

تتجلى هذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين في أنصع صورها ومدلولاتها، فتكشف عن عمق نظرته الإنسانية التي تنهدم دونها الحدود والسدود، وتنهار حواجز اللون والعرق والجنس، لأنَّ ما يربط الإنسان بالإنسان هو وحدة الوجود التي تسمو فوق الروابط الأخرى التي هي من صنع الجغرافيا والتاريخ وضرورات العيش وتضارب المصالح والهويات المتباينة.

يقول الشاعر في رثاء أبيه:

وقفتُ على القبرِ والوعتي فقلبي جراحٌ وجرحي فمُ
أبانا وكم من شقيقٍ لنا شريك الحنان ولا نعلمُ
فقد وسعت نفسك الخافقَيْن نفوس الورى حولها حُوَّمُ
وموطنك الخير أنّى سرى وأهلوه أهلوكَ إن ينتموا

مصادره الثقافية

إضافة إلى النزعات التي تحدَّثنا عنها، تنبغي الإشارة إلى أهم المصادر التي استمد منها الأمين صوره ورموزه. وعلى رأس تلك المصادر الثقافة الدينية الإسلامية والمسيحية التي تتبدّى آثارها بوضوح في شعره. وسأكتفي هنا

بذكر الجذور الشيعية التي تدل على مدى تأثُّر الشاعر بتراثه الثقافي والفكري والشيعي، فهو يقول في قصيدةٍ يرثي بها شقيقته:

أختاه يا بضعةُ من محسنٍ غَرُبتْ ... ما أعذبَ الجرس لمَّا قلتُ أُختاه

ذكرتُ زينبَ إذْ نادى الحسينُ وفي ... أذن الزمان نشيجٌ من رزاياه

منَّا عليٌّ إمامُ الحقِّ من دمه ... وردُ الفَلاح ومنَّا الصيدُ إبناهُ

وفي الطُّفوفِ لنا جودٌ على ظمأ ... وغاية الجود ما يحبوه ظمآهُ

سر الكأس

وأخيراً، ستبقى سيرة عبد المطلب الأمين ناقصة كما قلت، والكلمة الفصل رهنٌ باستعادة الجزء المفقود، لأنه، يحتوي على السرّ الدفين الذي غاص في غيابة الضياع غارقاً بغرق الصندوق الأسود.

ولأنَّ بعض السر في (الكأس)، لنستمع إلى عبد المطلب يخاطب الكأس:

أنت نايي يا كأسُ والنَّغمُ الحلوُ ... عطاء في كفِّك الخرساءِ

أعوزتني صداقة الناسِ فاملأ ... بحطام الأوهام فقر فضائي

لامني الناس في رفاقة كأسي ... يحرمون الأعمى عصا الاهتداءِ

***

كلمة أخيرة

إذا كانت لي من كلمة أخيرة في خاتمة هذا الكتاب، بعدما طوينا بعناية في نهاية المطاف كنتيجة متوقعة طبيعية، أشرعة خفّاقة لإبحار مدهش في بحار الأدب والشعر والتراث، ومحيط اللغة والتاريخ والحكايات الساخنة، خارج النمطية والرتابة والمألوف، فإن الفضل الأول، وليس الأخير، يعود إلى النقّاد والأدباء والمفكرين والشعراء والصحفيين والمنظّرين، الذين استضافهم كتابنا بين دفتيه بمحبة وتقدير وإكبار، فكانت شهاداتهم الأمينة ذات الصبغة الموضوعية المتوازنة، ودراساتهم الأدبية والنقدية المعمّقة، وانطباعاتهم الذهنية والذوقية الصائبة عن الشاعر، جوهر الكتاب الذي نأمل من إصداره نفض غبار الإهمال والتجاهل وتبديد الصمت، دون مبرر، عن هذا الشاعر - الدبلوماسي شبه المنسي في حياتنا الثقافية والفكرية بالرغم من أنه من المنتمين إلى القرن العشرين الصاخب بالحروب الكونية المدمّرة... وثورات التحرر الوطني في أسيا وأفريقيا.

جاء هذا الكتاب بفصوله الرئيسة.. المبوّبة دون تشابك أو حذلقات تنظيرية تخرجنا عن هدفنا النبيل وغايتنا المقصودة، للتذكير بمحطات حياته الرئيسة.. وتوثيق سيرته وعذابات قلبه الشرسة.. وما تبقّى من شعره.. ليشق، بقوة، طريقه إلى الآذان والقلوب.. ومن ثم إلى ديوان الشعر العربي المعاصر الغافي على الروائع، وبذلك نكون قد أعدنا اسمه وما تبقّى من شعره إلى ذاكرة من يعرفه أو لا يعرفه. ولسان حالي ما قاله الشاعر العربي القديم:

دقـات قلـب المـرء قائلـة لـه — إن الحيـاة دقائـق وثـواني

فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها — فالذكر للإنسان عمر ثاني

وفي هذا السياق.. أقدّم شكري الكبير وامتناني العميق، للسادة الأدباء والنقّاد على ما جادت به أقلامهم المبدعة السيّالة من كتابات رشيقة جذّابة، التمعت في ثناياها وسطورها المضيئة، روعة التحليل وصوابية الشواهد الشعرية في مكانها المناسب وفي مناخها النفسي المصاحب، فكانت هذه الكتابات الجادة الواعية، بمثابة الدليل النظري للقارئ الكريم للولوج، دون عناء، إلى خفايا عالمه الشعري الرحب المترامي الأطراف، الذي يفيض بالجمال والجلال وتجلّيات الإبداع المتجدد، وإشراقات الروح الحزينة فيما يشبه التهجد في غيهب الفجر.. مع نداء الله أكبر..

ولا يعني كلامي السابق، أنني لا أتحمّل مسؤولية ما ورد في صفحاته من آراء وأفكار ومعلومات وأشعار، مستمدّة، بعناية شديدة، من صميم الوقائع والحقائق، دون تحامل على أحد.. لأنني لست من هواة الضرب

تحت الحزام.. أو من عشّاق الصيد بالماء العكر.. وكما قال فولتير فيلسوف الثورة الفرنسية:

أنا على استعداد أن أدفع حياتي ثمناً للدفاع عن رأيك.

إن ما كتبته بشهقات وصرخات قلمي النازف بمداد دم القلب، الممزوج بوجع ولوعة وبكائية من فَقَدَ خلال حياته ما لايُستعاد أبداً، يعبّر عفوياً عن انطباعاتي الذاتية الشعورية، المواكبة لآمالي الكبار وطموحاتي المشروعة في معركة الحياة الكبرى الأزلية - بخاصة في مفتتح الكتاب - وومضات نفسي وخلجات قلبي المتسارعة تجاه والدي الرائع، الذي صعقني رحيله، وأنا ما أزال في مرحلة الطفولة السعيدة وعالمها البرئ، الملون بألوان قوس قزح في ليلة مطيرة سطعت شمسها في الصباح...

فكان هذا الكتاب الذي أضعه بين أيديكم، بمثابة الرنين الجرسي، الذي أزاح النسيان والإهمال والإجحاف عن عبد المطلب محسن الأمين. وهذا الرنين المدوّي في وجه السكون المشبوه، لا يُقرع عادة إلاّ إلى كل مجاهد ومخلص وثائر وشريف ومقاتل جاد بنفسه وبدمه الطاهر، في سبيل وطنه وقومه وعروبته.

وللأمانة.. فإنني أعترف - والاعتراف سيد الأدلة - بأنني، طواعية، لم أورّط نفسي في الحديث عن نقد الشعر أو تشريحه بمبضع الناقد الأكاديمي الحصيف، فهذا بحر لا أجرؤ على الخوض في غماره، لذلك أعطيت القوس باريها كما يقول المثل العربي القديم:

ورحم الله عبداً عرف حدّه فوقف عنده. ونصف العلم أن تقول:

لا أدري !!

وأُنهي كلمتي المقتضبة.. بترداد ما قاله الشاعر الكبير بدوي الجبل، عملاق الكلاسيكية المعاصرة، من قصيدة له، ألقاها في مهرجان المعري الألفي الذي أُقيم في سوريا:

الدّهْرُ مِلْكُ العبقريَّةِ وَحْدَهَا   لا مِلْكُ جبّارٍ ولا سَفّاحِ

محسن عبد المطلب الأمين

ملحق الكتاب المصوَّر



الشاعر عبد المطلب الأمين في بدايات شبابه



الأول إلى يسار المشاهد الشاعر الدبلوماسي عبد المطلب الأمين القائم بأعمال السفارة السورية في موسكو (الاتحاد السوفييتي سابقاً) مع أركان السفارة السورية، يتوسطهم الرئيس السوفييتي كالنين (نظارته الطبية (١٩٤٦)).



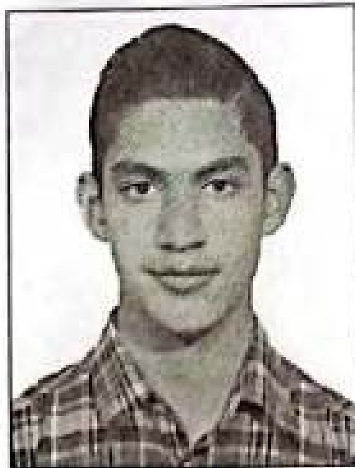
الشاعر عبد المطلب الأمين في الأربعين من عمره



عبد المطلب الأمين في كهولته



محسن عبد المطلب الأمين
(الابن)



عبد المطلب محسن الأمين
(الحفيد)



ضريح الشاعر في بلدة شقراء في لبنان[1]

(١) بعدسة عبد المطلب الأمين (الحفيد).



العلّامة الجليل محسن الأمين



محسن الأمين (الحفيد)
يحمل اسم جده وصفاته الإنسانية الرحيمة
وطهارة قلبه وحبه للإنسان... (هاني)

صدى الحنين
في مشاعر الحفيد

كلما فكّرت بك يا جدي..
نزلت دمعة على وجنات خدي..
تندب فراقك فالفراق لا يعرف للشوق من حدّ..
لجدّ ما عرفته إلاّ بوصايا في جعبة الدهر الأسود..
فلم يترك الزمن لي لحظة للردّ..
على أسئلة سألتها عن الجيل الصاعد..
بئس جيل لا يعرف قيمة ما كتبته من قصائد.

***

أعلم أنك تراني.. أعلم أنك تصرخ لترشدني.. لكنني عاجز عن سماع ما تقول.. فجدار الموت كان أصلب من أن تعبر من خلاله كلماتك لتكون لحناً لما أكتب، أو دعني أقول إن ما كتبته سيكون لحنا متناغماً لما قلته..

عبد المطلب الأمين[1] (الحفيد)

(١) مصادفة لطيفة أن يكتب الحفيد هذه العبارات النثرية الصادقة وهو في الخامسة عشرة من عمره، أي بعمر جده، عندما نشر بواكير شعره في جريدة الناقد الدمشقية.(هاني)

هامش رقم (١)

يبدو أن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، قد أعجبته عبارة (أشمّ تربك عاشقاً)، التي وردت في قصيدة عبد المطلب الأمين وعنوانها: (أمي دمشق)، فكررها الجواهري في قصيدته الشهيرة وعنوانها: (دمشق يا جبهة المجد) ومطلعها:

شَمَمْتُ تُربَكِ لازُلفى ولا مَلَقَا وسِرْتُ قَصْدَكِ لاخِبّاً ولا مَذِقَا

وهنا ننوّه بأن الأمين كتب قصيدته عن دمشق في العام ١٩٧٠، بينما الجواهري نظم القصيدة المشار إليها في صيف العام ١٩٧٨، وحلّ ضيفاً كريماً في العام المذكور على وزارة الثقافة السورية، التي أقامت له حفلاً تكريمياً في صالة مسرح الحمراء، فكانت قصيدته عن دمشق.

هل الأمر مجرد مصادفة سعيدة ؟ ! أم أن الجواهري قد راقت له هذه العبارة فكررها لاشعورياً بدوره ؟ ! أم أن عراقة دمشق وعظمتها دفعت بالشاعرين الكبيرين إلى شم تراب دمشق الطاهر المروي بدماء الشهداء الأبرار عبر عصور التاريخ حتى هذا اليوم؟! ولكيلا يُساء فهمي من قبل محبي الجواهري، وهم بالملايين، فإن شاعر العربية بدوي الجبل، أورد في قصيدة له في رثاء كامل مروة، أحد الأبيات الشعرية التي وردت في (الشوقيات)، عندما نظم أمير الشعراء قصيدة في رثاء عبد الخالق ثروت. وحين قابلت بدوي الجبل في منزله بدمشق، بحضور نجله الإعلامي الكبير الأديب منير الأحمد، استفسرت منه عن ملابسات

الأمر !! فقال لي: لا أتذكر كيف حدث ذلك !! ربما يكون الأمر مجرد توارد خواطر.. في الطبعة الثانية من ديواني سأستدرك الأمر.. ولكنه رحل عن عالمنا دون أن يحقق رغبته. ومن أراد التوسع فإنني أحيله إلى كتابي (يحدثونك عن أنفسهم ج١) .

(هاني)

هامش رقم (٢)

في السادس من تشرين الأول العام ١٩٧٣، كان الشاعر مستلقياً في سريره في إحدى غرف مشفى الجامعة الأمريكية ببيروت، حين سمع بإندلاع شرارة الحرب على الجبهتين السورية والمصرية، عن طريق (التلفزيون) الموجود في غرفته وأن الجيشين العربيين يحققان انتصارات ساحقة على العدو الصهيوني المتغطرس، وأن العالم في حالة ذهول لما يجري في الشرق الأوسط من حرب عنيفة ذكّرتهم بأجواء الحرب العالمية الثانية...

فكان تعليقه الوحيد قوله: الحمد لله أنني لم أمت قبل أن أشاهد روعة وألق هذا الإنتصار، الذي أعاد للعرب كرامتهم المهدورة بين شعوب الأرض. ولم تكن حالته الصحية الآخذه بالتدهور (تشمّع في الكبد) تسمح له بنظم قصيدة من وحي هذه الحرب المشرّفة فرحل عن عالمنا وفي نفسه حسرة، لأنه لم يتمكن من تسجيل هذا الإنتصار العظيم شعرياً.

(هاني)

هامش رقم (٣)

وفي هذا السياق.. فقد مدح الشاعر أدونيس زعيم الحزب القومي الإجتماعي السوري أنطون سعادة، وامتنع التشبيه بين الرجلين الممدوحين حسني الزعيم وأنطون سعادة، عندما زار الأخير مدينة اللاذقية في نهايات الأربعينات من القرن العشرين، بقصيدته الشهيرة وعنوانها: (قالت لي الأرض) وبعد إعدام سعادة في بيروت العام ١٩٤٩ ، وانسحاب أدونيس من الحزب القومي الاجتماعي السوري، تنكّر أدونيس لأبياته الشعرية في مدح أنطون سعادة، شأنه شأن نزار قباني الذي تنكّر لقصيدته في مدح حسني الزعيم... ومن الأبيات المحذوفة لأدونيس نذكر:

سوريا سوريا اشمخي فلقد ... أعطيت للدهر كبرياه وزاده
ووهبت التاريخ ملحمة حمراء ... صارت سلاحه وعتاده
فأفاق الزمان يسأل عنها ... ويروي بخفقها أياده
ذاك آذار.. ذاك أول آذار ... وهذا ابنك العظيم سعاده

(هاني)

المصادر والمراجع

١. شعر عبد المطلب الأمين، المطبعة العاملية لبنان ١٩٧٦ م.

٢. ديوان الحريري، محمد الحريري، إعداد وتقديم شوقي بغدادي، إتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٨٥م.

٣. وجوه ثقافية من الجنوب، مجموعة من الباحثين، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨١م.

٤. المقامات، عبد السلام العجيلي، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٦٣.

٥. رسالة إلى امرأة نسيت اسمها، حنا مينه، وزارة الثقافة السورية، دمشق ٢٠٠٨م.

٦. الحبة والسنابل (محاضرات)، نجاة قصاب حسن، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٤م.

٧. عبد المطلب الأمين الشاعر المتمرد، محمد موسى حمادة، هيئة إنماء المنطقة الحدودية، بيروت ٢٠١٤م.

٨. كبار عرفتهم، نزار الحر، (إصدار خاص)، بيروت.

٩. أديب الشيشكلي صاحب الانقلاب الثالث في سوريا، هاني الخيِّر، مكتبة الشرق الجديد، دمشق، ط٣، ١٩٩٥م.

١٠. شخصيات سورية في القرن العشرين، ج٢، هاني الخيِّر، دار الفتاة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣م.

١١. شعراء لبنانيون، رحلوا، ميشال خليل جحا، دار نلسن، بيروت، ٢٠١٠م.

١٢. مستدركات أعيان الشيعة، ج١، حسن الأمين، بيروت.

١٣. معالم الشام وأعلامها - تاريخ التشيع في بلاد الشام، د. محمد سعيد الطريحي، دار الرافدين، بيروت.

١٤. شعراء راحلون من جنوب لبنان، إشراف وتقديم حبيب صادق، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بالتعاون مع وزارة الثقافة اللبنانية، بيروت ٢٠١٠م.

١٥. المعجم المدرسي، وزارة التربية السورية، دمشق ٢٠٠٧م.

١٦. ديوان بدوي الجبل، الأعمال الكاملة، ط دار العودة، بيروت.

١٧. هوامش على دفتر النكسة، نزار قباني.

١٨. نزار قباني الوجه الآخر، جهاد فاضل، الإنتشار العربي، بيروت.

١٩. فتافيت شاعر وقائع معركة مع نزار قباني، جهاد فاضل، دار الشروق، القاهرة.

٢٠. أيام حسني الزعيم ١٣٧ يوماً هزت سورية، نذير فنصه، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢١. يحدثونك عن أنفسهم، ج١ ، هاني الخير، (إصدار خاص)، دمشق ١٩٨٣.

٢٢. في رحاب الجواهري ، صباح المندلاوي، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٠م.

٢٣. محطات قومية، جميل مخلوف، الركن للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠٧.

٢٤. جريدة الناقد الدمشقية العدد (٢٦) نيسان ١٩٣١، وكذلك العدد (٢٧).

٢٥. الأرشيف الشخصي للكاتب الصحفي هاني الخيّر.





عبد المطّلب الأمين

شاعر الآمال والآلام والإنسانية

لقد خسرنا عالماً كبيراً بوفاة الشاعر عبد المطلب الأمين.

(الإمام المغيب السيد موسى الصدر)

أحد الذين عرفوه عن قرب، حين ... إليه أن يختار لعبد المطلب من بين مواهبه لقباً، راح يحصي: الشعر، الشريعة، القانون، السياسة، وأردف: نعم لقد كان مفكراً منظراً، بل لقد كان مجتهداً وربما أحد أدمغة سوريا في أيامه.

(الأديب الناقد محمد علي مقلد)

أنت يا عبد المطلب فخر شباب سوريا فإذا أحياني الله فسأكافئك.

(سعد الله الجابري - رئيس وزراء سوريا)

كانت المكافأة التي نالها الأمين هي تسريحه من وزارة الخارجية على يد الجنرال حسني الزعيم الذي دشن حياة الإنقلابات في سوريا ودشن معها منح المكافآت للم... على طريقة مكافأته لعبد المطلب.

(الصحافي الأديب زهير ...

